الباب الأول

الرؤى الموضوعية للغرب في السيرة الذاتية

الفصل الأول

الرؤية الثقافية

المبحث الأول: احتذاء الأدباء للثقافات الغربيـــة، كـــلٌّ حســـب ميولـــه ومذاهبه.

المبحث الثاني: تداخل الثقافات في بعض السير الذاتية.

المبحث الثالث: الموقف من ثقافة الآخر رفضاً أو قبولاً.

المبحث الأول

احتذاء الأدباء للثقافات الغربية، كلٌّ حسب ميوله ومذاهبه

في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي جاء نابليون بونابرت بجيشه، فاحتل مصر فيما عُرف **بالحملة الفرنسية** عام ١٧٩٨م. وقد تفاجأت الحملة بقوة مقاومة الشعب المصري ضدها، وهو ما حدا بنابليون للرحيل بعد ثلاث سنوات فقط من مجيئه. وعلى الرغم من أن مصر كانت تابعة سياسياً – قبل مجيء نابليون– للباب العالي بإسطنبول مركز الخلافة العثمانية، فإن المصريين – وبعد جلاء الفرنسيين عن بلادهم– ترسخ لديهم نازع القومية المستقلة، فلا فضل لأحد عليهم في نجاحهم بإفشال مخطط نابليون باستعمار الشرق. وكان لابد لهم من الانضواء تحت لواء الخلافة، فاختاروا محمد علي والياً لهم[١] بأنفسهم، لا من تفرضه عليهم تركيا.

ولاشك عندي بأن قدوم نابليون لمصر كان لاستلاب خيرات البلاد وثرواتها. ففي القرن السابع عشر الميلادي سنة ١٦٧١م جاء المستشرق وانسلب Wansleb إلى مصر، ومكث طيلة أربع سنوات، ثم عاد لفرنسا ومعه ما لا يقل عن سبعمائة مخطوط[٢]، واستمرت عناية

---

(١) انظر: الأدب العربي المعاصر في مصر. شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة ط١٣ /٢٠٠٤م، ١٢.

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب، إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م، ط الأولى، ١٩٧.

المستشرقين بالكتب العلمية والثقافية، حتى أن بيوت كبار المماليك تحولت في أثناء سنوات الحملة الفرنسية إلى مختبرات للكيمياء والطبيعة، وأصبحت حدائق هذه البيوت حقولاً لدراسة علم النبات، ومصانع لعمل آلات التجارب العلمية. وقد اصطحب علماء ومستشرقو الحملة الفرنسية مع رجوعهم صناديق مليئة بذخائر الكتب العربية التي أغنت المكتبة الأهلية بباريس[١]. فالمستشرقون "هم الذين مكّنوا لأوروبا في البلاد العربية"[٢].

وما يهمنا نحن الدارسين والباحثين التغييرات التي حدثت بالبلاد في أثناء الحملة الفرنسية، وما خلفته من آثار ثقافية وعلمية. فقد اصطحب نابليون معه علماء ومستشرقين ومهندسين وموسيقيين وممثلين، وأحضر مطابع إفرنجية وعربية لتسجيل حوادث الحملة، ولتقديمه للمصريين، وإعلان أغراضه ونواياه[٣].

فلا غرابة أن أكثر رواد الثقافة والتنوير في العصر الحديث بمصر، كانت ثقافتهم فرنسية بالدرجة الأولى، **فرفاعة الطهطاوي**[٤]

---

(١) انظر: المرجع السابق، ١٩٧.
(٢) المرجع السابق، ١٩٨.
(٣) انظر: تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية. إبراهيم عبده. مكتبة الآداب، ط٢/١٩٤٩م، ٣٤.
(٤) رفاعة الطهطاوي: رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣م)، من أعلام التنوير في مصر. ولد في طهطا بالصعيد، قصد القاهرة والتحق بالأزهر، ثم أُوفد إلى أوربا كمرشد ديني لبعثة الأنجال أول البعثات العلمية لأوروبا، وتعلم اللغة الفرنسية ،وقد عمل بعد عودته في مراجعة الكتب المترجمة، وتولى نظارة وإدارة مدرسة الألسن وإدارة جريدة (الروضة) ثم إدارة جريدة (الوقائع المصرية).
من آثاره:

ذهب إلى فرنسا، وأقام فيها لسنوات، والشيخ **محمد عبده** كذلك، **وعلي مبارك**[١]، والشيخ **مصطفى عبد الرازق**[٢]، **وطه حسين**[٣] أيضاً، **وزكي مبارك**[٤]، وجملة من رواد التحديث في الحياة الثقافية والفكرية في مصر.

وأسهمت الكلمة المقروءة بهذا السباق عبر الصحف والمجلات والكتب.وقد تسارعت وتيرة التقدم لتشمل سائر العلوم الإنسانية والمدنية.

– تخليص الإبريز في تلخيص باريز.
– المرشد الأمين في تربية البنات والبنين.
= انظر: ١. معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة. دار إحياء الكتب العربية، بيروت (د.ت)، ١٦٨/٤.
٢. مشاهير الشعراء والأدباء، علي مهنا و علي نعيم خريس. بيروت ، ط١/ ١٤٠١ه ٩٧.

(١) سبق التعريف به.

(٢) مصطفى عبدالرازق (١٨٨٥- ١٩٤٧م)، درس في الأزهر وتعلم اللغة الفرنسية، وتنقل في بعض الدول الأوروبية، تولى تدريس اللغة العربية في كلية ليون بفرنسا، وقد تقلّد في بلاده مناصب قيادية.
انظر: ترجمته في مقدمة كتابه: مذكرات مسافر.

(٣) طه حسين: (١٨٩٨- ١٩٧٣م)، ولد طه حسين بإحدى قرى الصعيد، فقد بصره صغيراً، فألحقه والده بالكتاتيب لحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى الأزهر حتى نال شهادة الدكتوراه، دخل الجامعة المصرية ومنها ابتعث إلى فرنسا، وهناك تأثر بمناهج الدراسات الغربية في البحث، وتزوج بفرنسية، وبعد عودته تقلّد مناصب مختلفة، فكان عميداً لكلية الآداب، ثم وزيراً للمعارف، وكاتباً وأديباً ومفكراً. خرج عن قيود التقليد في طرائق التفكير السائدة آنذاك.
من آثاره:
١. في الأدب الجاهلي.
٢. حديث الأربعاء.
٣. دعاء الكروان.
٤. الأيام.
انظر:
مشاهير الشعراء والأدباء، ١٣٤.

(٤) زكي مبارك (١٨٩١- ١٩٥٢م) تتلمذ في الأزهر ،ثم في الجامعة، وسافر لاستكمال تعليمه في جامعة السوربون في باريس، عاش محباً للعلم والتعلم حتى آخر حياته. وضع مصنفات غزيرة.
انظر: زكي مبارك. سلسلة أعلام ومشاهير.(د.ن). القاهرة، ط١/ ٢٠٠٢م.

ومع أن محمد علي لم يكن رجل علم وأدب، إذ كان يريد بناء دولة عسكرية ذات جيش عظيم، فكان أن افتتح المدارس الحربية، وأوفد البعثات إلى أوروبا [١] لتحقيق حلمه هذا، ومع ذلك جاءت الثمرات النافعة لأهل البلاد، فقد دارت عجلة التقدم، وفور عودة أبناء البلاد من بعثاتهم الدراسية سعوا لتثقيف الشعب، وأسهمت الكلمة المقروءة عبر الصحف والمجلات والكتب في تغيير الأذواق العامة للناس، وتنوع الاتجاهات الثقافية، وكان لتقارب المسافات بعد انتشار المواصلات السريعة صدىً إيجابي في هذه التغيرات، فما كان يصدر من ثمرات العقل الأوروبي سرعان ما يجد طريقه لأيدي القراء في مصر.

******

- لم تكن البعثة التي أُرسل فيها رفاعة الطهطاوي أول بعثة دراسية إلى أوروبا، بل سُبقت ببعثات قبلها، وإن كان أفرادها قليلين، ولكن بعثة رفاعة كانت أول بعثة تضم " العنصر المصري فيها"[٢] فتطلبت وجود مرشد ديني لها، يقوم بأمور شعائر الدين فيها، فيكون إماماً لها في أداء الفروض وسائر العبادات. وكانت البعثة مجموعة من الطلاب اليافعين المحتاجين لمرشدٍ ومسؤول يكون

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر، ١٤.
(٢) رفاعة الطهطاوي، ثقافته وعصره. أحمد مرغني عيسوي، الإسكندرية، المطبعة العصرية، (د.ت)، ٣٤.

عيناً ساهرة عليهم، والطريف في الأمر أن مرشد البعثة وإمامها كان هو أكثر أفرادها استفادة من البعثة، "وكان أكثرهم تأثيراً على مجتمعه بعد عودتهم"(١).

على أنه من المهم تذكّر أن الطهطاوي ذهب إلى فرنسا متسلحاً بثقافة شرعية وأدبية قوية، وقد كانت هذه الثقافة خير مُعين له فيما يرى من بعض العوائد السيئة عند الفرنسيين.

لقد أُعجب رفاعة بما شاهده من آيات التقدم والرقي المدني الذي وصل إليه حال الفرنسيين –ومثلهم سائر الممالك الأوروبية– وأراد تمثل هذه الحياة المتمدنة في بلاده، وقد ذكر في بداية كتابه التخليص، السبب الرئيس للبعثة، وهو بلا شك التزود قدر الإمكان بالعلوم النافعة، ويقول: "وقد تشتت عز الخلفاء، وانهدم ملكهم، فانظر إلى الأندلس، فإنها الآن بأيدي النصارى الإسبانيول من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة، وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم، ومعرفتهم في الحرابات، وتنوعهم واختراعهم فيها... ولهذا تنبه ولي النعمة حفظه الله تعالى، حيث ولاه الله سبحانه وتعالى على بلاد مصر القاهرة أن يرجع إليها شبابها القديم، ويحي رونقها الرميم، فمن مبدأ توليه حفظه الله سبحانه وتعالى، وهو يعالج في مداواة دائها، الذي لولاه لكان عضالاً، ويصلح فسادها، الذي قد كاد أن يكون زواله محالاً، ويلتجئ إليه أرباب الفنون البارعة، والصنائع

(١) د. أحمد زويل وثورة التنوير في تاريخ الثقافة المصرية، محمد الصاوي، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠١م.

النافعة من الإفرنج،ويغدق عليهم فائض نعمته، حتى أن العامة بمصر– بل وبغيرها – من جهلهم يلومونه غاية اللّوم بسبب قبول الإفرنج، وترحيبه بهم، وإنعامه عليهم، جهلاً منهم بأنه – حفظه الله – إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم، لا لكونهم نصارى، فالحاجة دعت إليه،ولله درّ من قال:

إن المعلم والطبيب كلاهما لم يبذلا نصحاً إذا لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما " (١)

* ولعل هذا السبب وراء كثرة تفصيلات الطهطاوي في حياة الأمة الفرنسية وعاداتها الاجتماعية والثقافية وقوانينها وطبيعة أهلها ومناخها، من دون أن يكون بالضرورة ناقداً لما يراه مما يخالف دينه وعقيدته وأخلاقه. فقد طمح إلى الارتقاء الحضاري والتنعم بثمار المدنية الحديثة التي تعيشها أوروبا، إذ كانت الأوضاع المعيشية والاقتصادية في بلاده وفي بلاد المشرق عامة تتردى من سيئ لأسوأ، فمصر – على كثرة ما فيها من خيرات وثروات، وموقعها الجغرافي الذي يربط بين ثلاث قارات– إلا أن الإنسان المصري لم يستفد من كل هذه المزايا المهمة، وكيف يستفيد وهو مغلول اليدين والقدمين، تتصارع قوى العالم للسيطرة عليه والتنعم بما له من ثروات؟

(١) تخليص الإبريز في تلخيص باريز. رفاعة الطهطاوي. (ت ١٨٧٣م). دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة – تونس ،٢٠٠١م ، ١٢ + ١٣.

فبعد مغادرة الحملة الفرنسية كُرهاً – بفضل مقاومة أهلهـــا– تـــمَ تحالف بقايا المماليك مع الإنجليز الطامعين كليهمـــا فـــي حكـــم الـــبلاد والاستئثار بخيرات البلاد.

كان هناك بقايا المماليك من ناحية، وهناك الإنجليز مـــن ناحيـــة أخرى، وهناك قوة ألبانية متعاظمة مُرسلة من العثمانيين.

أما المصريون، فكانوا يعيشون في أدنى مراتب الهرم الاجتماعي فهُم العامة وفقراء المدن، والجبرتي على ما فيه من موضوعية ونزاهة وتجرد، تحدث عن هذه الفئة "باستعلاء واضح"[١] فهُـــم فـــي المفهـــوم الأوسع العامة، ثم هم السوقة، والرعاع، والجيـــاع، ثـــم هـــم الزعـــر، والحرافيش، والهوام، والغوغاء، وأصحاب الحرف الدنيئة[٢].

ولكن لماذا؟

لأنهم ببساطة لم يكونوا من التجار ولا مـــن الأشـــراف ولا مـــن الأتراك ولا الألبان.

---

(١) رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره. علي بركات. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ٤٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ٤٣.

ورفاعة ينتمي لأسرة كريمة وعربية أصيلة، وقد كانت هذه الأسرة في الماضي ذات يسار وعقار، ثم تبدلت أحوالها وضاقت عليها السبل بسبب جور الحكام[١].

وقد كان للمتعلمين الأزهريين قدر لا بأس به من الاحترام والاعتبار، وهكذا كان رفاعة.

وعندما ذهب ابن البلد، المصري الصميم، رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا، شاهد حياة مختلفة تماماً عن حياته الماضية، شاهد أنوار الحضارة تضيء جوانب المجتمع وزواياه، حدثت له ما حدث لغيره من أبناء وطنه ممن عاصروه، أو ممن جاء بعده، صدمة حضارية. فالفرق شاسع بين المجتمع الذي أتى منه، والمجتمع الذي يراه الآن. هنا النظافة تبرق وتسطع في كل زاوية وناحية، أما هناك (القاهرة) فسرعان ما تتحول الشوارع – إن وُجدت– "إلى أكوام قاذورات ومباول"[٢].

فالفرنسيون يحرصون على نظافة المكان والثياب حرصاً شديداً.

لقد شاهد إسلاماً من غير مسلمين. ومسلمين بلا إسلام.

---

(١) انظر: رفاعة الطهطاوي ،ثقافة عصره، ٣١.
(٢) المرجع السابق، ٧٥.

لقد أراد الطهطاوي من خلال كتابه هذا، وتأليفه وتراجمه الأخرى، أن تقتدي بلاده بأوروبا، وتلحق بركب الحضارة المشعة بالنظام والثقافة والنظافة والكرامة والعدالة، وغيرها من ثمار المدنية.

وعاش الطهطاوي طيلة حياته مخلصاً لدعوته التنويرية، بهدف نهضة بلاده، وكان له تصور نهضوي يقوم على الاعتزاز بما يملك من مكتسبات تاريخية لحضارات مصر القديمة، حتى قبل الإسلام وبعده، فالهدف هنا إعلاء شأن مصر وإبراز تميزها، وهو ما جعلها مطمعاً ثميناً –على مر التاريخ – للفاتحين والقادة العظام، من فرس وعرب وعجم. والعمل كذلك في نفس الوقت على رفع المستوى الحضاري لمجتمعه، من خلال مكتسبات الحضارة الحديثة، بتعلم علومها وفنونها، وقد اكتسبت دعوته التنويرية وهجاً تغريبياً، ومن هذا الأساس تعددت الدعوات المؤيدة والمناهضة لدعوته وفكره.

وكيف له أن يدعو إلى تمثل نماذج حضارية مختلفة أخرى بسبب بعض المآخذ القليلة على ما يراه؟ إنه النموذج الحضاري الوحيد الذي عرفه عبر رحلته هذه.

أراد الطهطاوي الخروج من الهوة السحيقة التي يحياها بنو جلدته وأمته، هوة الجهل والتخلف والجمود، وإذا كان هناك من يعيب على الطهطاوي عدم إنكاره – وهو الشيخ والإمام والواعظ وحافظ كتاب الله– منكرات المجتمع الفرنسي ونقائصه المثبتة في تلخيص باريس، وقد

شاهدها بأم عينيه ووقف عليها، مثل اشتغالهم العظيم بدنياهم، ولا مبالاتهم بدينهم، و مراقصة الرجال للنساء، وتبرج النساء، ونحو ذلك، فالطهطاوي في رأيي يتأرجح في هذا الجانب ما بين التقصير والموضوعية، فهو– في قلة تعليقاته على ما يورد من الصفات والعوائد المستهجنة– مُقصر إلى درجة ما. ولعله فضّل أن يبدو من خلال كتابه هذا ناقلاً لما يشاهد، من دون أن يرفق مشاهداته تلك بآرائه الشخصية وأحاسيسه الخاصة.

وعلى الرغم من كل هذا، فقد وُجدت بعض التعليقات الشخصية في موضوعات مختلفة، وإن كانت قليلة، فحين تناول موضوع قساوسة الكنائس، استنكر رفاعة مبدأ التبتل الدائم وعدم الإذن للقساوسة بالزواج، لأن هذا الأمر "يزيدهم فسقاً على فسقهم"(١). وهو محقّ في ذلك بلا شك، فانحرافات القساوسة الجنسية هزّت ثقة الناس فيهم، ولم يعودوا ينظرون إليهم باحترام. وفقدت الكنيسة بالتالي سلطتها ومكانتها عند الناس.

• • •

- عندما ارتحل أوائل المصريين لطلب العلم في أوروبا خاصة، نظراً لموقعها الجغرافي القريب من مصر، جلبوا معهم بذور الحضارة، وزرعوها في أرضهم، فأنبتت ثماراً مختلفة في ألوان

(١) تخليص الإبريز، ١٨٤.

الأدب والعلم والثقافة.. وأعلم تماماً أن مناقشة ما بات يُعرف ثقافياً بالصدمة الحضارية قضية متشعبة في الرؤية والتنظير والمعالجة للمستجدات، بكل ما فيها من خير وشر. ومن هنا وجب علينا أن ندرك حجم التأثيرات وثقلها في نفسية المصري الوافد، وربما يساعدنا وجودنا في بوتقة العصر الحديث ومنجزاته الفكرية والصناعية لتقدير حجم الذهول والانبهار عند من يواجه الحضارة الصناعية لأول مرة، يقول الجبرتي في تاريخه عما رآه من تجارب كيميائية بمعمل كيميائي أقامه نابليون على غرار المجمع العلمي الفرنسي: "ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان، أن بعض المتقيدين لذلك، أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصبّ منها شيئاً في كأس، ثم صبّ عليها شيئاً من زجاجة أخرى، فعلا الماء، وصعد منه دخان ملوّن، حتى انقطع وجفّ ما في الكأس، وصار حجراً أصفر، فقلبه على البرجات حجراً يابساً، أخذناه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل كذلك بمياه أخرى، فجمدت حجراً أزرق، وبأخرى، فجمدت حجراً ياقوتيَّاً. وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض، ووضعه على السندال وضربه بالمطرق بلطف، فخرج له صوت هائل انزعجنا منه، فضحكوا منا"[1].

(١) المختار من تاريخ الجبرتي، عبد الرحمن حسن الجبرتي ، اختيار: محمد البقلي، مطابع الشعب، ١٩٥٨م، الجزء الثالث، ٢٨٥.

إنها براءة الإنسان البسيط وسذاجته تجاه غموض الألوان والأصوات، فتدفعه فطرته وفضوله لسبر هذا الغموض عن طريق العلم والاستزادة منه ما أمكنه. وفي نفس الوقت تدله على واقعه المعيشي البدائي مقارنة بما يشاهده. فرفاعة الطهطاوي مثلاً عندما عاد لبلاده حرص على تقديم أفانين الحضارة الأوروبية في موائد فكرية متنوعة عبر التأليف والترجمات، حتى إنه ترجم بعض أجزاء الدستور الفرنسي.

"والطهطاوي لم يكن يترجم مثل هذه المواد الدستورية وحسب، بل هو يشرحها ويعلق عليها أحياناً، كأنه يتعمد أن يبين مواضع قوة الشعب وحقوقه وواجبات الحكام، فسائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في أجزاء الأحكام المذكورة في القانون، حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره"[1]... وكان إعجابه شديداً بكثير من مظاهر الحياة فيها" فصمم على إطلاع مواطنيه على هذه المظاهر تنبيهاً لأذهانهم على آفاق الحياة الحقيقية المتقدمة، وحثاً لهم على تطلبها والتطلع إلى تحقيقها في بلادهم"[2].

ومما لا شك فيه بأن رفاعة الطهطاوي أراد لبلاده أن تكون في مصاف الدول الأوروبية في التقدم العلمي والرقي والحضارة، مؤملاً بأن

---

(١) أدب الرحلة عند العرب، حسني محمود حسني، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط٢ /١٤٠٣هـ، ٧٥.
(٢) المرجع السابق، ٧٤.

يأتي اليوم الذي ينال فيه بنو جلدته الحريات والحقوق التي يتمتع بها المواطن الفرنسي.

وهنا يتبادر للذهن سؤال، وهو:

هل كانت دعوات رفاعة هذه، هو ومن جاء معه وبعده بداية التيار الفكري التغريبي في بلاد الإسلام؟

في الحقيقة أن هناك مواضع في الرحلة تشفّ عن بعض الملامح التغريبية فيها، مثل رأي رفاعة بعدم تأثير اختلاط النساء بالرجال على الأخلاق السوية والتربية السليمة، كقوله:

"وحيث إنّ كثيراً ما يقع السؤال من جميع النّاس عن حالة النساء عند الإفرنج كشفنا عن حالهنّ الغطاء، وملخّص ذلك أيضاً أن وقوع اللّخبطة بالنسبة لعفّة النساء لا يأتي من كشفهنّ أو سترهنّ، بل منشأ ذلك التربية الجيّدة والخسيسة، والتعودّ على محبّة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبّة، والالتئام بين الزوجين، وقد جُرِّب في بلاد فرنسا أنّ العفّة تستولي على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس دون النساء الأعيان والرّعاع، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهنّ الشبهة كثيراً، ويُتّهمن في الغالب"(١).

(١) تخليص الإبريز، ١٤٣.

وبالنسبة لي_كباحثة_ أرى أن الطهطاوي أصاب في مسائل وأخطأ في أخرى، مثل قوله بعدم تهييج الرقص المختلط للشهوات، يقول:

"ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من العياقة والشبلنة، لا من الفسق، فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنّه من خصوصيات النساء، لأنّه لتهيج الشهوات، وأمّا في باريس فإنّه نمطٌ مخصوص لا يشمّ منه رائحة العهر أبداً، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ الرّقص عزمها آخر للرقصة الثانية، وهكذا، وسواء كان يعرفها أو لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهنّ، ولا يكفيهنّ واحد أو اثنان، بل يحببن رؤية كثير من النّاس يرقص معهنّ لسآمة أنفسهنّ من التعلّق بشيء واحد"(١).

وفي موضع آخر يتحدث عن طائفة من الأبناء غير الشرعيين، وما تفعله المرأة الخاطئة إذا شعرت ببوادر الحمل:

"فهنّ كالرجال في جميع الأمور، نعم قد يوجد منهنّ بعض نساء غنيّات مستورات الحال، يمكّن من أنفسهن الأجنبيّ، وهنّ غير متزوجات، فيشعرن بالحمل ويخشين من الفضيحة بين الناس، فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر، ليلدن ويضعن المولود عند

(١) المصدر السابق، ١٤٣.

مرضع بأجرة خاصة ليتربى في البلاد الغربية، ومع هذا فالأمر ليس بشائع"[١].

أقول: كان الأجدى بالطهطاوي أن يعلم أن اختلاط الجنسين سبب رئيس لإثارة الغريزة، وما الأبناء غير الشرعيين إلا سبب من أسباب الاختلاط، وهذا من البدهيات المعروفة.

على أن الحيدة والموضوعية تقتضي القول بأن الطهطاوي- ومع إعجابه الكبير لما شاهده في رحلته هذه- انتقد في مواضع متعددة فيها بعض العادات والمعتقدات الشائعة لدى الفرنسيين، فتحدث عن قلة عفاف كثير من نسائهم، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة[٢]، وإنكارهم القضاء والقدر، وكونهم نصارى بالاسم فقط، ولا حظّ لهم من النصرانية، بل يُحكّمون العقل ولا يتبعون ملتهم[٣].

******

طه حسين: الإرادة والتمرد:

تمثلت فرنسا في وجدان طه حسين منذ بداياته المبكرة عالماً مجهولاً مليئاً بالروائع المدهشة. وقد تعلق وشغف باللغة الفرنسية

(١) المصدر السابق، ١٢٨.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٨٦.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٢٨.

وجرسها المميز، وازداد تطلعاً لهذا العالم، حتى بلغ تطلعه هذا حد الهيام[١] كما يشير في أيامه.

واستحوذت عليه فكرة السفر لفرنسا، ودراسة آدابها، وحياة أعلامها من أهل الأدب والفلسفة المختلفة كل الاختلاف عما عرف ودرس من آداب اللغة العربية وعلومها ودروس الشريعة، وأراد كذلك ممازجة الحياة الفرنسية الراقية.

هاهو يتمثل نفسه، وقد سافر لفرنسا حتى من قبل صدور الموافقة على طلبه للالتحاق بإحدى البعثات الرسمية المتوجهة لأوروبا [٢]، وجعل يتحدث لأهله عن سفره هذا كما لو كان أمراً محتماً وواقعاً لا محالة: "ويغيظ أخواته بأنه سيقيم في أوربا أعواماً، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة، ليست جاهلة مثلهن، ولا غافلة مثلهن، ولا غارقة في الحياة الخشنة الغليظة مثلهن، وكان أخواته يتضاحكن حين يسمعن منه هذا الحديث"[٣].

وقد امتلك هذا الفتى –كما يسمي نفسه– زمام أمره بإرادة من حديد؛ ليوجهها نصب أمنياته وطموحاته. نراه يدرس جاداً ومثابراً كل ما يُلقى إليه من أفانين العلوم والفنون، صبوراً مُتصبراً، ليصل لما يريده حتى يلامسه بيديه.

---

(١) انظر: الأيام ، ٣/ الفصل السابع.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٧٣.
(٣) المصدر السابق، ٤٧.

يركب القطار في رحلة طويلة من روما إلى باريس:

"فلم يبرح مكانه ذاك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة، وإنما أشبه بمتاع قد أُلقي في ذلك الموضع، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته، لينقل إلى موضع آخر، لم يتحرك، وكان أشبه شيء بالمتاع، ولكنه كان متاعاً مُفكراً"[1].

فلم يغادر مكانه ولم ينبس بكلمة أو يشارك رفقاء السفر، ورفيقه الدائم –الدرعمي–[2] طعاماً أو شراباً أو حديثاً يقطع به ثقل الساعات الطوال، بل ظل مكانه كتمثالٍ عُجن من طينة الصمت والصبر والعزم لأكثر من ثلاثين ساعة، مستغرقاً في تأملاته وأفكار تتناوشه، فتحلّق به تارة، وترميه في فلوات الحيرة والتساؤلات تارة أخرى.

ولا يُؤخذ على طه حسين تعلقه وشغفه بالسفر لأوربا، كغيره من الدارسين ذوي الطموحات والآمال الكبار.

ولكن شخصية طه حسين استنبتت بالروح الأوروبية خلقاً جديدا، وعاد إلى دياره روحاً ثائرة على مجتمعه الذي– وإن كان فيه ما فيه من الخلل بنظامه التعليمي والاجتماعي– لا يُبرر ما قام به طه حسين بطرح بعض التنظيرات والأفكار الصادمة، التي جلبت له العداوات

---

(١) المصدر السابق، ١٠٠.
(٢) مثلما يُقال للطالب المتخرج من الأزهر: الأزهري.
يُقال كذلك للطالب المتخرج من دار العلوم: الدرعمي.
والدرعمي هذا هو رفيق طه حسين المصاحب له أثناء رحلته الدراسية.

والخصومات إلى حد المرافعات القضائية، إذ لم يترك شيئاً استطاع نقده ولم ينقده، حتى ولو كان كتاب الله سبحانه وتعالى، القرآن الكريم[1].

ومع أن عبد الرحمن بدوي تلميذ من تلامذة طه حسين المخلصين، فإن ولاءه لأستاذه لم يعم بصيرته وفكره عن انحياز طه حسين السافر للفكر الأوروبي، لاسيما فرنسا، ويذكر بدوي مؤتمراً للمستشرقين أُقيم في فرنسا عام ١٩٤٨م، وحضره الوفد المصري، فلما كان دور رئيس الوفد لإلقاء كلمته تلعثم وأصبح موقفه حرجاً، فهمس بدوي في أذن طه حسين الجالس في المقدمة؛ ليتدارك الموقف، ويُلقي بنفسه كلمة الوفد.

يقول بدوي:

"وفوجئت بالدكتور طه حسين يبدأ كلمته بقوله: إني أشعر بحب تجاه فرنسا.

أقول الحق، لقد شعرتُ بالخزي، فالدكتور طه يحرص في كل مناسبة على إظهار حبه وافتتانه بفرنسا والفرنسيين، دون أدنى اعتبار لما إذا كان الظرف مناسبا أو غير مناسب... إن تعلق طه حسين بفرنسا وافتتانه بالفكر الفرنسي عموماً قد جنى على موضوعيته العلمية... ففي

(١) سيأتي الحديث عن هذه النقطة في المبحث القادم.

أحكامه على هذا الفكر كنتُ أشعر أنه مجامل إلى حـــدٍ كبيـــر لزوجتـــه الفرنسية"[١].

(١) عبـدالرحمن بـدوي، فيلسـوف الوجوديـة الهـارب إلـى الإسـلام، سـعيد اللاونـدي، مركـز الحضارة العربية، القاهرة ط١ / ٢٠٠١م، ١٢٤ بتصرف.

التغــريب:

الافتتان بالغرب هو طابع المرحلة التالية لارتحــال أوائــل رواد التنوير ولولا ارتحال أوربا / الحملة الفرنســية لمصــر، مــا ارتحــل المصريون لأوروبا. وكان مبدأ التأثر والتأثير في كلا الطرفين حتميــة لابد منها. وساهمت الأوضاع الاجتماعية المتردية فــي عمــوم بــلاد المشرق لانطلاق دعوات الطهطاوي باتخاذ نظام دستوري علــى نمــط الدساتير الأوروبية وإحلاله محل الشريعة ومــا ترجمــة الطهطــاوي للدستور الفرنسي إلا دليل إعجابه بتنظيمات القانون، حتى لــو كانــت بعض مواده وضعية لا تستند على أصلٍ شرعي من الكتاب والسنة.

- غير أن أخطر ما خلفته هذه الدعوات –بحسب ما أرى– الــدعوة لترسيخ نازع القومية، يقول محمد محمد حسين عن شعار القومية الذي رفع لواءه الطهطاوي:

"للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا، الــذي يقــوم علــى التعصب لمساحة محدودة من الأرض... يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر، ليكوّنا وحدة متكاملة، ذات شخصية مســتقلة، تميزهــا عــن غيرها من بلاد المسلمين... ولأول مرة تُنقل إلى المسلمين النظريــات الثورية التي تريد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم مــن واجبــات، وتبصّر الشعوب بما لهم من حقوق... ونرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عــن

المرأة، لاشك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوروبيـــة، مثـــل تعلـــيم الفتيات، ومنع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين"[١].

وقد نشط الطهطاوي لتعميق هذا النازع، وتأصيل تـــاريخ مصـــر السابق عن الإسلام،من تمجيد الحضارة الفرعونية وعبقريتها بأســـلوب الفخر والاعتزاز، وإعلاء شأن الرابطة الوطنية بين جميع أبناء الـــبلاد، مسلمين ونصارى ويهود. وجعلهم إخواناً متساوين في ظل هذا الـــرابط الذي أسماه المنافع العمومية، جاعلاً رابط الدين أقل وأدنى مرتبة مـــن روابط الوطنية.

- وقد أثمرت جهود هذه الدعوات وترسخت – تـــدريجياً– أشـــكال القومية والمناداة بإعلاء شأن مصر الفرعونية، والاحتفاء بأعيـــاد ومواسم هذه الحضارة على الصعيد الرســـمي والشـــعبي معـــاً. ونشطت المحاضرات لتأسيس العنصر الفرعـــوني فـــي الثقافـــة المصرية، وقد لخّص طه حسين محاور الثقافة المصرية بثلاثـــة محاور، أولها: العنصر الفرعوني، وثانياً: عنصر الـــدين والأدب ناتج الحضارة الإسلامية، وثالثاً: العنصر الأوروبي ممثل الثقافـــة الغربية، جاعلاً هذه المحاور الثلاثة المقومات الثقافية للشخصـــية المصرية الحديثة.

(١) الإسلام والحضارة الغربية. محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت ط٧/ ١٤٠٥ه ، ١٩.

وهذه القومية لا تستند على عرقٍ معين، ليقال قومية عربية مثلاً.. بل إنها تتوغل في التعمق داخل الإقليم الواحد ليصبح أقاليم متعددة بلغات وعادات مختلفة عن بعضها.

وقد كان لمصر سبق الريادة في رفع هذا الشعار، لتنتقل العدوى بعد ذلك للبلدان المجاورة، وتنشط ثقافات وتراث ما قبل الإسلام، وإحياء الحضارات البابلية والآشورية والكلدانية وغيرها من الحضارات البائدة.

وعن الفرعونية نجد طه حسين يقول: "إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربياً... مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة: القاهرة أم بغداد أم دمشق.. "[1].

و كم هو مؤسفٌ أن يصدر هذا الكلام ممن أُطلق عليه عميد الأدب العربي.

ومع كونه عميداً للأدب العربي، فإنه لم يكن محافظاً على سمت الأدب والأديب معاً، بل كان مفكراً متمرداً على كل شيء، وتوغل طويلاً في الاعتقاد بأوروبية مصر أو إغريقيتها أو فرعونيتها، أي أمة أخرى ذات مجد تالد إلا أمة العرب.

(١) المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة. أنور الجندي. دار المعرفة ، القاهرة (د.ت).٢٢٥.

ولم تكن سماء تيارات المذاهب الفكرية سوى انعكـــاس لموجـــات الصراع المذهبية المتلاطمة في ذلك العهد النشط بالشعارات المجموعـــة المنادية تارة بفرعونية مصر، وتارة بأوروبيتها، وهكذا.

وقام بعض رموز الأدب بحملات قلمية شعواء بغرض الانســـلاخ من كل ما يمت للعروبة، مثلما كان لويس عوض على سبيل المثال فـــي دأبه الدائم في مهاجمة اللغة العربية والعروبة عامة.

ولكن الصورة الشاملة للمجتمع لم تكن سوداوية الأفق والأرجـــاء من كل جانب، فلم يعدم المجتمع من كتابات قوية ومُشـــعة بـــالاعتزاز الشامخ بالإسلام والعروبة، بل إن هذه الأصوات هي الكثرة الكاثرة، وإن لم تكن أحياناً ذات صوت عالٍ مثل صوت المجاهرين بنبـــذ العروبـــة والإسلام. ولكن وكما هو معروف بأن العربات الفارغة هـــي الأكثـــر ضجيجاً.

وتضم ذكريات باريس لزكي مبارك شـــواهد انتمائـــه وافتخـــاره بحضارته وعروبته من خلال بعض موضوعات الكتاب. يقول في مقالة بعنوان: "الحديث ذو شجون" :

"الواقع أن عدداً ضئيلاً من دعاة الوطنية المصرية "لا يعلمون" ما هي الوطنية، فهم يحسبون أن الفراعنة أقرب إلى مصر من العرب، مع أن قليلاً من صدق الحسّ وسلامة الذوق يكفي للاقتناع بأن مصر الحديثة

مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة الإسلامية. وأنه إن صح لأي قطر أن يتبرأ من العرب فلن يصح ذلك لمصر التي لم يكفها أن تستفيد من حضارة العرب، بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها في كثير من الأقطار، وهي اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

وبهذه المناسبة أذكر أنني كثيراً ما ألاقي في باريس رجالاً من الحجاز والشام والعراق، وكثيراً ما نتداول الرأي في إنهاض الأمم العربية، فما يردعني إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها أمة عربية"[1].

ويظهر أن النعرات المنادية بالانسلاخ من العروبة والانتماء الإسلامي كانت من الذيوع والانتشار منذ بواكير القرن العشرين. والنص السابق يوضح بدهية انتفاء مشكلة الاحتواء والانتماء الحضاري لصاحبه، فهو لا يعاني أصلاً من هذه العقدة، وهي عقدة فعلاً لأنها برزت بشدة في ذلك العهد عند بعض أقرانه من أعلام الفكر والأدب بدرجة حادة، وعندما تحدث عن عيد الاستقلال الفرنسي الذي يوافق اليوم الرابع عشر من شهر يوليو من كل عام، خانته الكلمات وهو يرى مع استعراض الجيش وفود جيوش الدول التابعة لفرنسا.

(١) ذكريات باريس. زكي مبارك (ت ١٩٥٢م). دار الهلال ، القاهرة ١٤٢٣ه، ١٩٤+ ١٩٥.

"ستمر الأعوام ولا أنسى"[1] بهذه الكلمات القليلة استهل حديثه عما رآه في ذلك اليوم المشؤوم، وقت كانت تونس والجزائر خاضعة للاستعمار الفرنسي، فدارت به الأرض، وأظلم في وجهه الفضاء، وغلبه الدمع: "ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوحوا بإشارة الرضا ازددت حسرة إلى حسرة، ودمدمت:

يُقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

كان أولئك الجنود يخطرون بخيولهم على شاطئ السين وهم صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا، وأذلّوها في القرون الوسطى[2] ... وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير، كانت خطواتهم يومئذٍ خطوات عزة وكبرياء. واستطاع شاعرهم أن يقول:

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا أرضاً ترب الشيح والقيصوما"[3]

وبالجملة، فقد كانت تلك الليلة ثقيلة من أولها إلى آخرها، شاهد فيها بني أمته في صورة التابع الذليل في رداء الفخر الزائف، في مشهد حزين أقضَ مضجعه وزاد مرارته وحسرته.

---

(١) المصدر السابق، ٢٢١.

(٢) الكاتب هنا إنما يعبر عن مرارته إزاء ما يشاهد من انقلاب الأوضاع وكيف صار السيد مسوداً وإلا فمن المعلوم بأن المسلمين الفاتحين نشروا حضارة الإسلام وعدله وسماحته وجعله واقعاً معاشاً في ربوع البلاد المفتوحة شرقا وغرباً .

(٣) ذكريات باريس ، ٢٢٢.

وقد برز زكي مبارك في ذلك بين ثلة غيورة من المنافحين للانتماء الإسلامي والعروبة الأصيلة، لا يرون في غيره مجداً وعزةً ورفعة.

*****

- كنت قد تحدثت في التمهيد عن تجربة مصطفى محمود، ورحلته التساؤلية الطويلة من عالم الشك إلى عالم الإيمان، وكيف أنه وغالب أبناء جيله أُخذوا بتقدم وتطور العالم الغربي من خلال ما يصلهم به من صناعات وكتابات ومشاهدات، وليس مصطفى محمود وحده من خاض هذه الرحلة الروحية القلقة، بل نجد ما يشابه تجربته عند بعض أبناء جيله، مثل تجربة **عبد الوهاب المسيري**[1] مع فلسفة الماركسية التي توجه إليها في مطلع شبابه. في سن السادسة عشر حين بدأ يتساءل بعض الأسئلة المحيرة عن أصل الشر ومن الذي

---

(١) عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨-٢٠٠٨م) المفكر والكاتب والأستاذ الجامعي المعروف، ولد في مدينة دمنهور، ودرس فيها تعليمه الأولي. تخرج من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية بقسم الأدب الإنجليزي عام ١٩٥٩م.
قضى زمناً طويلاً من حياته في التعليم الجامعي داخل مصر وخارجها في المملكة العربية السعودية ثم في الكويت، وسبق أن عمل مستشاراً ثقافياً لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة، تخصص في دراسة الفكر اليهودي ،وأصدر عشرات الكتب عن الصهيونية واليهودية وله موسوعتان في هذا المجال:
- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية الصادرة عام ١٩٧٥م.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية الصادرة عام ١٩٩٩م.
وله مؤلفات ودراسات متعمقة عن العلمانية وعن الحداثة وما بعد الحداثة.
متذوق للفن والرسم التشكيلي وله مجموعة قصص للأطفال.
انظر:
- مقدمة سيرته : رحلتي الفكرية (في البذور والجذور والثمر). عبد الوهاب المسيري ، دار الشروق ، القاهرة ط٣ / ٢٠٠٨.
_ ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

خلق هذا الشر في العالم، وكان قد انكب في تلك المرحلة على قراءات بعض الفلسفات الغربية التي زادت من حيرته وشكه.

ويذكر قصيدة تساؤلية قرأها في بدايات شبابه للشاعر **كامل الشناوي**[1] جاء فيها:

"يارب فيمَ خلقتنا وتركتنا

نَهْبَ الظلام فلا ضياء ولا سنا

وندبٌ فوق الأرض لا ندري بها

وندبٌ فوق الأرض لا تدري بنا

أنا من أنا

أنا من أكون

وسيلة أم غاية

أنا لست أعرف من أنا

وهمٌ يساور مُلحداً فَيُروعه

---

(١) كامل الشناوي: (١٩٠٨-١٩٦٥م) شاعر مصري شهير وصحفي مرموق، ولد في محافظة الدقهلية، عمل بالصحافة مع طه حسين في جريدة الوادي، دخل الأزهر لبضع سنوات، تثقف وجالس الأدباء وحضر دروساً في الآداب العربية والأجنبية.
عُرف برقة شعره، وغنى له كبار المطربين المصريين.
من قصائده:
- لست قلبي.
- لا تكذبي.
انظر: موقع: الموسوعة الحرة ويكيبديا.

ويخافه من كان مثلي مؤمناً"

ويذكر المسيري أن هذه القصيدة أثرت فيه تأثيراً عميقاً، فازدادت حيرته وقلقه الداخلي[١].

والمسيري من عائلة متدينة محافظة على الصلاة والزكاة وسائر فروض الإسلام وتعاليمه، وهو أيضاً من عائلة ميسورة مادياً من بلدة دمنهور، ولكن صراع الأسئلة لم يفتر ولم يخف نبضه المزعج ولم يجد نفعاً كذلك الأجوبة البسيطة ممن يحيطون حوله، يقول:

"وانتهى بي الأمر إلى أن أعلنت أنني لن أصلي ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتي"[٢].

ثم يضيف بأسلوب موجز وقع الخبر الصاعق على أسرته ووالده الذي شتمه وأنَبه، إلا أنه في نهاية الأمر تركه وشأنه، ولما كان الشك قد أوجد في داخل الشاب المتسائل مساحات جرداء وفراغاً، وجد في الماركسية بعض الانتماء بذاته، لاسيما بدعواتها المثالية في أسلوب العيش الحر، ودعوتها للعدل الاجتماعي[٣].

---

(١)انظر: رحلتي الفكرية، (في البذور والجذور والثمر) عبد الوهاب المسيري، ١٣٧.
(٢) المصدر السابق، ١٣٧.
(٣) الماركسية نظرية في الاقتصاد السياسي وضعها كارل ماركس مع صديقه فريدرك إنجلز في منتصف القرن التاسع عشر، وقد اشتهرت هذه النظرية باسم الشيوعية، وتقوم على فكرة أن الأفراد في المجتمع الإنساني يدخلون في علاقات إنتاجية، وأن مجموع العلاقات

وكانت مصر في تلك المرحلة –أوائل الخمسينات– تمر بمرحلة تعاضد وتكاتف مع الاتحاد السوفيتي، فانتشرت الأدبيات والفلسفات السوفيتية في المكتبات وبأسعار زهيدة، فأخذ المسيري في قراءة تلك الأدبيات، بل إنه قام بترجمة بعض أشهر الكتب الماركسية.

والواقع أن للماركسية جاذبية كبيرة في دعوتها مثلاً للعدل، ورفضها الإذعان والقبول بالأمر الواقع الذي هو جوهر الجمود والرجعية.

إلا أن انتماءه الفكري هذا سبب له بعض المشاكل مع النظام الحاكم، فاعتقل أكثر من مرة.

- ولكن المسيري مُنيَ بخيبة أمل مع رفقاء حزبه الذين لم يكونوا يلتزمون بالفكر الماركسي "ولا بأي منظومة أخلاقية، خاصة إن ماركسية بعضهم كانت تنبع من حقد طبقي أعمى، وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض" [1].

ولهذه التناقضات والمفارقات بينه وبين رفاق الحزب، قدّم استقالته.

الإنتاجية يشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، وهو الأساس الذي تقوم عليه البنية القانونية والسياسية، والماركسية تنتصر لطبقة البروليتاريا أو الطبقة الكادحة –طبقة العمال.
انظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، ط الأولى، ١٤١٥هـ، (د.ن)، ١٥٣.

(١) رحلتي الفكرية، ١٤١.

ومع أن المسيري أصبح بعد ذلك ذا توجه إيماني إسلامي واضح في جميع نشاطاته ومحاضراته ومؤلفاته، فإنه استفاد من تجربته الماركسية القصيرة التي يقول عنها:

"زودتني الماركسية بأرضية نقدية أقف عليها لأطل على بيئتي البرجوازية في مصر، ثم فيما بعد على بيئتي الأمريكية في الولايات المتحدة، فلم أنبهر بما رأيت، كما حدث لكثيرين من أعضاء جيلي، انغمس في الاستهلاكية والرغبة في اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء، فمن خلال الماركسية أمكنني الاحتفاظ بالبُعد النقدي، وباستقلالي عما حولي وبمقدرتي على رؤيته كلاً كاملاً وبالتالي تجاوزه"[١].

- ويبرز في موضوع احتذاء الأدباء للثقافات الأجنبية بحسب ميولهم ومذاهبهم الوجودي **عبد الرحمن بدوي**[٢] والبعيد في وجوديته كل البعد عن وجودية الفرنسي سارتر.

---

(١) المصدر السابق، ١٤٣.

(٢) عبد الرحمن بدوي (١٩١٧-٢٠٠٢م) ولد في شرباص بمدينة دمياط وتابع دراسته حتى حصل على الدكتوراه، وقد كتب وحقق وترجم أكثر من ١٢٠ كتاباً، وله باع طويل في مجال الفلسفة التي تخصص فيها، وكتب عن التراث الإغريقي في الحضارة الإسلامية، وحقق معظم أعمال أرسطو وأفلاطون كذلك، حقق لكثير من الفلاسفة العرب مثل الكندي والفارابي وابن سينا.

انظر:

١. سيرة حياتي. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ١ / ٢٠٠٠م.

٢. موقع: بيان الثقافة.

والحقيقة أن للوجودية دلالة مزدوجة:

الأولى: تيار فلسفي.

والثانية: ظاهرة اجتماعية[١].

والوجودية تؤمن بأن فهم العالم المحيط بنا لا يتأتى إلا عن طريق فهم ذواتنا أولاً، لأنه لا انفصال بين هذا وذاك[٢].

وأن وجود الإنسان لا يتحقق إلا في اللحظة التي تحياها ذاته بكل حدودها وانطلاقاتها، وأن غرام الإنسان بالبحث عن المعرفة الخارجة عن ذاته أنساه البحث عن معنى وجوده هو، وبالتالي أحسّ بالضياع والغربة في هذا الكون[٣].

ولا أرى تناقضاً بين هذين المفهومين عند هيجل أو عند كيركجارد، وهما من أعلام هذا المذهب.

---

(١) المذاهب الوجودية (من كيركجورد إلى جان بول سارتر)، ريجيس جوليفيه. ترجمة: فؤاد كامل، دار الآداب، بيروت، ط الأولى، ١٩٨٨م، ٥.
(٢) المذاهب الأدبية (من الكلاسيكية إلى العبثية)، نبيل راغب، مكتبة مصر، (د.ت)، ١٢٢.
(٣) المرجع السابق، ١٢٣.

أما وجودية **سارتر**[1] ففيها تخليط بأصناف التحليلات النفسية، ولا تُعد فلسفة كما يرى عبد الرحمن بدوي.

- والحقيقة أن مفهوم الوجودية عند سابقي سارتر أكثر وضوحاً وتحديداً في أنها مذهب يعالج بعض الموضوعات التي لا يستطيع الإنسان حلها، والتي تنتهي عادة بإشكالية معقدة ليس على صاحبها حلّها، بل على المتلقي من الجمهور والقراء[2]، وهو بهذا يجعل المفهوم للمغزى النهائي لموضوعاته يتصل باللانهائي، فالمتلقي سيختلف طرحه لحل الإشكالية باختلافه الشخصي عن المتلقي الآخر، وهكذا يتصل النهائي (الذات)، باللانهائي (الكون) والمطلوب إيجاد رابطة تربط هذا بذاك.

- هذا ما تقدمه الوجودية ضمن هذه المفاهيم لـ هيجل وكيركجارد. وهي هنا لا تختلف كثيراً عن بعض المفاهيم الصوفية التي ترى ضرورة اتصال (الصوفي النقي) بالكون، على اعتبار أنه جزء من كل. فالصوفية تلتقي هنا مع الوجودية – في هذه النقطة– نحو إيجاد علاقات تصل المحدود باللا محدود، والنهائي باللانهائي عبر (الذات الإنسانية) و(الكون).

---

(١) سارتر: جان بول سارتر (١٩٠٥ – ١٩٨٠) الناقد الفرنسي والكاتب المسرحي. اشتهر بميله لتحطيم قيود المجتمع وضغوطه ، ويرى أن الإنسان مجرد (مُشيء) أي أنه أقرب للأشياء منه للكائن الحي ، وأنه بعد إدراكه لحريته تصبح له قيمته المميزة. درّس الفلسفة في الجامعة ، ووقف ضد بلاده فرنسا في حربها مع الجزائر داعياً لاستقلال الجزائر، قائلاً إن السلام هو الحرية. من أشهر أعماله: الذباب. انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

(٢) انظر: سيرة حياتي ١٨٤/١.

- ولكن الوجودية بوصفها ظاهرة اجتماعية تشكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م "وارتبطت بالمظاهر الانفلاتية في العلاقة بين الجنسين"[١] وشمل مفهوم الانفلات هذا العلاقات الاجتماعية العامة، وتصدّر دور أزياء الملابس الغربية الخالية من الذوق والجانحة إلى التمرد، وتشجيع فكرة الانغماس في إحياء اللحظة الحاضرة.

ولا ريب أن إنسان ما بعد الحرب العالمية سيطر عليه القلق والتوتر الذي ألجأه لاعتناق السُبل الهروبية من واقع أمامه، لا سيطرة له عليه. فظهرت الوجودية تدعو "لتأكيد الذات وتحريرها من كل قيود المجتمعات واندفاعها إلى الرغبات، تسابق فيها خطر الحرب الماثل"[٢].

- أما وجودية عبد الرحمن بدوي، فهي تميل للتعمق الفلسفي القائم على تفسير الوجود بواسطة فكرة الزمان.

-وتفسير ظواهر هذا الوجود على أسس الزمانية.

-وفهم أحداث التاريخ فهماً كيفياً.

-وتفسير العدم بأنه الهوات القائمة بين الذرات، لأن الوجود منفصل وليس متصلاً[٣].

---

(١) المصدر السابق ١٨٤/١ بتصرف.
(٢) الوجودية، أنور الجندي، (د.ت)، (د.ن)، ٣.
(٣) انظر: سيرة حياتي ١٧٩/١.

وهو ما لم أفهمه حقيقة، وأعتقد تماماً بإشكالية استيعاب بعض المُثل الفلسفية من وجهة نظر عبد الرحمن بدوي.

ولكن الذي أود الاعتراض عليه في مقولاته اعتماده في تفسير الحوادث على الصدفة، ويؤكد اقتناعه بمفهوم الصدفة عبر القصة التالية التي أوردها في مطلع سيرته:

"بالصدفة أتيتُ إلى هذا العالم، وبالصدفة سأُغادر هذا العالم! وآية ذلك أنه لو لم تتطاير ورقة، وتتساقط على الأرض، فينحني والدي لالتقاطها، لكان قد ودّع الحياة في ذلك اليوم من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣م. فقد استأجر أحد خصومه قاتلاً، جاء إلى حيث يجلس في بيت العمدية في مساء ذلك اليوم، ثم أطلق عدة رصاصات في اتجاهه، وفي هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسمية التي كان يراجعها (وهي من أوراق المحكمة الشرعية) فانحنى لالتقاطها، فلم يصب الرصاص إلاَّ الطرف الأعلى من العمامة، واستقر في بابٍ كان خلفه. وصاح: الله حي؟ وصمت صمتاً تاماً جعل القاتل يظن أنَّه أصاب من والدي مقتلاً. وأخذ يعدو إلى منزل من استأجره، لكن والدي نهض فوراً وعدا في أثره، مدركاً بحدسه المرهف، أنه لابد في طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرير، الذي كان يدعى جادوزرد. ونادى والدي على المارة أن يهبُّوا معه إلى منزل ذلك الرجل، حتى حاصروه.و في أقل من نصف ساعة كانت القرية كلها قد تجمعت واقتحمت ذلك المنزل،ولما لم تجد الجاني

لأنَّه هرب إلى منزل مجاور مكشوف، انقض عليه أحد الرجال وهو مختبئ في أحد أركانه، وتمَّ تكبيله بالحبال، والقبض على من استأجره. وقام والدي بتبليغ الحادث بنفسه إلى مركز الشرطة، فجاء رجال الشرطة من فارسكور– على مسافة ثمانية كيلومترات من شرباص،وقام هؤلاء بالقبض على الجاني ومَن استأجره، وسيقوا إلى مركز الشرطة في فارسكور.

وكان ميلادي بعد ذلك بأربعين شهراً في الرابع من فبراير، سنة ١٩١٧م.

ولو فتشت تاريخ حياة أي إنسان، لوجدت أن نوعاً من الصدفة هو الذي تسبَّب في ميلاده: صدفة في الزواج، صدفة في الالتقاء بين الحيوان المنوي في الرجل والبويضة في الأنثى، إلخ إلخ.. وواهمٌ إذن مَن يظن أنَّ ثم ترتيباً، أو عناية أو غاية، إنما هي أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً، فتؤدي إلى إيجاد من يوجد وإعدام من يُعدم"[١].

وهذا أساس الاعتراض لدي على كلام بدوي، فلا يوجد ما يُسمى بالصدفة. والمصادفة في المفهوم المسلم، وحتى في قانون الفوضى والاضطراب أو كما يسميه البعض بالفوضى المنظمة، فيقرّون بأن هنالك تنظيماً يحكم المظاهر الخارجية والخارجة عن حدود الفهم البشري، لأنها وكما أراها ببساطة من لدن حكيم عليم.

(١)المصدر السابق ١/٥ +٦.

ألم يعلم عبد الرحمن بدوي الحديث الشريف: "ما أصابك لم يكــن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك"[1].

ولو أنه وقر في علمه ويقينه لما ارتكز في مفهومه ورؤيته لمــا حوله على مبدأ الصدفة. ويبدو أن حادثة نجاة والده بهذه الكيفية الغريبة أثَرت في وجدان الفتى ودفعته للتفكير الذي هداه لمبــدأ الصــدفة فــي تفسيره للحوادث.

(١) الحديث مشهور عن ابن عباس رضي الله عنه، وجاء أيضاً بروايات عديدة منها: "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا".

انظر:
الأربعون حديثاً النووية، يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، الرياض ، (د.ت)، (د.ن)، ٢٨.

المبحث الثاني

تداخل الثقافات في بعض السير الذاتية

لا يستطيع كاتب ما أن ينسلخ من مرجعياته الثقافية الأم. فالأساس المتين للثقافة الغربية والإسلامية كان ولا يزال المحرك الرئيس لدى معالجة الظواهر وتحليلها. فإذا تعلّم وتخّرج أديب ما من الأزهر مثلاً، فهذا يعني ضمناً تزويده بثقافة شرعية ولغوية وتراثية خصبة.. وحتى كلية دار العلوم العريقة التي تجمع بين تطور الأساليب التعليمية وبين الأصالة العلمية، تُعدّ مصدراً من مصادر تعزيز الثقافة العربية وترسيخها في نفوس الدارسين.

وتتضح عظمة الثقافة العربية باحتضانها –ومنذ القِدم– لروافد متلونة من آداب الأمم الأخرى ومعارفها، والتقائها بعد ذلك في العصر الحديث بالثقافات الغربية على اختلاف مشاربها.

وتداخل الثقافات هذا يُشكل مصدراً غنياً للمعرفة والتنظير، إلا أنه قد يصبح عائقاً للتطور متى ما انحاز المثقف لرؤية الآخر (الغربي). واستند في أحكامه وتحليلاته على مرجعيات هذا الآخر.

إذ إن هذا الموقف يعكس – وبدون أدنى شك – تخاذلاً وإنكاراً بجدوى المرجعية الثقافية الأم.

وتبني الرؤى الغربية للتقدم –على علاتها– هو ما أسميه بالهزيمة النفسية، وهي إحدى وجوه الصدمة الحضارية.

وبعيداً عن هذه المسميات التي استهلكت في البحث والمعالجة – فإنها مسميات حقيقية لواقع الثقافة العربية عبر عشرات السنين من القرن الماضي.

وفي مصر امتدت تأثيرات التغريب إلى أعمق مراكز الثقافة المسلمة (الأزهر)، حتى إن بعض علماء هذا الصرح العلمي العتيد، درسوا في باريس ولندن وغيرها من البلدان الغربية، على يد كبار المستشرقين، العلوم العربية والإسلامية والفلسفية. وقد تحدث طه حسين في أيامه عن بعض أساتذته ممن تأثر بهم حين التحق بالجامعة، فذكر أستاذه نالينو المستشرق الإيطالي الذي كان يُدرّسهم الأدب والشعر الأموي، وأستاذه الألماني ليتمان مدرس اللغات السامية، والأستاذ سنتلانا أستاذ الفلسفة الإسلامية، وغيرهم من كبار المستشرقين الذين كانوا يتحدثون العربية ويُعلّمون بها[1].

وقد تعلق طه حسين منذ بداية معرفته باللغات الغربية عندما بدأ يتعلم الفرنسية عام ١٩٠٨م[2]، تعلق وشغف بالآداب والفكر والفلسفة

---

(١) انظر في الأيام الجزء الثالث الفصل الخامس – حديثه الشائق عن أساتذته الأجانب والمصريين في أثناء دراسته الجامعية.

(٢) انظر: فكر طه حسين التربوي، بين النظرية والتطبيق. د. مصطفى رجب. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ط١ / ١٩٩٥م، ٢٨.

الغربية، حتى كاد ينصرف انصرافاً تاماً عن الآداب والثقافة العربيـــة، لولا وجود الأساتذة المصريين الذين أسهموا في ترسيخ جانـــب الثقافـــة العربية وتأصيل نظرته "وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقـــوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون، وكان جديراً بأن يحوّل هذا الفتى تحويلاً خطيراً يُفنيه في العلم الأوروبي إفناء، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي إلى ركنٍ شديد من الثقافـــة الشرقية الخالصة، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافاً معتـــدلاً مـــن علـــم الشرق والغرب جميعاً[١].

ولكني أعتقد بأن لطف معاملة الأساتذة الأجانب للطالب طه حسين كان له دور ملموس في تعلقه بالآداب الأوروبية، وهو الذي عانى مـــن قسوة وخشونة شيوخ الأزهر وتعليقاتهم اللاذعة[٢]، مما أوجد لدى الفتى نفساً ثائرة متمردة. ولاشك أيضاً بأن أساتذة الجامعة المصريين كان لهم الأثر الإيجابي لديه تجاه الثقافة العربية، سواء بمنهجيتهم المختلفة عـــن منهجية الأزهر، أو عن طريق تعاملهم الطيب مع تلاميـــذهم، وإلا لمـــا ذكرهم بأسمائهم عرفاناً منه بجميلهم عليه.

---

(١) الأيام: ٤٥٣/٣.

(٢) لم يُكنّ طه حسين للأزهر احتراماً ولا توقيراً، ولا يعتبره أصلاً المكان التعليمي اللائق، وتعكس الأيام مشاعره السلبية هذه بوضوح.
إلا أنه ينبغي معرفة أن بعض شيوخ الأزهر –والحق يُقال- كانت مسالكهم التعليمية يشوبها التزمت والجفاء والخشونة.

وقد سعى طه حسين إلى تعلم اللغات الأوروبية للتزود منها مااستطاع إلى ذلك سبيلاً، فلم يكتفِ بتعلم الفرنسية، بل وسعى لتعلم اللغتين اللاتينية واليونانية؛ لاكتساب أسس المعرفة من أصولها الصافية.

ويرى بعض الباحثين أن وراء تعلم طه حسين للغة اللاتينية دوافع حضارية أكثر منها عوامل فكرية "إذ إن مصر آنذاك عرفت تيارين أحدهما يمثل الثورة الرومانسية ممثلة في المنفلوطي فكراً، ومصطفى كامل تطبيقاً، وهو تيار يميل إلى المحافظة، والتيار الثاني يمثل التنوير ممثلاً في أحمد لطفي السيد، وبينما كان الأولون الرومانسيون يتكلمون باسم الحق والعدل، كان الآخرون (العقليون) يتكلمون باسم المنطق والواقع – والفكر الأرسطي بوجه خاص– ومن هنا كان اتجاه طه حسين إلى الفكر اليوناني اتجاهاً يغلب عليه الفكر أكثر من الأدب"(١).

وقد يكون طه حسين نموذجاً تطبيقياً لتداخل وتمازج الثقافات عنده في ثقافته العربية الأولى وثقافاته الأخرى، لاسيما بعد تعلمه للغات الفرنسية واليونانية، وثقافته في التاريخ المصري القديم وهي الثقافة الفرعونية. وقد ساعد امتزاج هذه الثقافات لديه في تعميق رؤاه ووضوح أفكاره في سبيل النهوض بوطنه وأبناء بلاده عن طريق المناصب العديدة التي شغلها من أستاذ في الجامعة إلى رئيس قسم ثم عميداً لكلية الآداب، وقد رأس لفترة بعد ذلك جامعة الإسكندرية، واستلم قمة

(١) فكر طه حسين التربوي، ٣٠.

مسؤولية التكليف التعليمي حين أصبح وزيراً للمعارف[1]. وكان مع كل هذه التدرجات الوظيفية نشيطاً في نشر رؤيته الخاصة عبر ألوان أدبية وتربوية ينشرها في الصحف والمجلات.

وقد مثّل الجامعة في المؤتمرات الخارجية في القدس وبيروت ودمشق، والمؤتمرات الخارجية في فرنسا وبريطانيا وهولندا.

ولم تكن أعباء هذه الوظائف الجسيمة لتصرفه عن حبه الأول في التأليف والترجمة والنشر، فتراث طه حسين الأدبي والفكري والتربوي مجموع في سلسلة أدبية خاصة به، أما مقالاته وأوراقه الثقافية فهي منشورة ومحفوظة في ثنايا عشرات الصحف والمجلات.

ولاشك أن طه حسين أوجد مناخاً وحِراكاً ثقافياً بين أشياعه ومريديه ومعارضيه كذلك، بسبب جملة من آرائه كان أبرزها بلا شك ما حدث له بعد نشر كتابه (في الشعر الجاهلي)[2] عام ١٩٢٦م، الذي شكّل صدمة لجمهور القراء من خاصة الناس وعامتهم، وما أعقبه من مجادلات ومطاحنات علمية واجتماعية، أوصلته إلى ساحة القضاء والمحاكم، وألجأته للاعتذار عندما نصحه مدير الجامعة آنذاك

(١) لمعرفة تدرج طه حسين في المناصب التعليمية والثقافية الهامة.
انظر: فكر طه حسين التربوي، ١٨ وما بعدها.

(٢) أثار هذا الكتاب (الشعر الجاهلي) سخطاً علمياً وشعبياً جارفاً. وقد تلقى طه حسين رسائل مجهولة المصدر، تحوي تهديدات بالقتل.
وسرعان ما سحب الكتاب وحُذفت بعض موضوعاته، ثم نُشر ثانية سنة ١٩٢٧م بعنوان: (الأدب الجاهلي).

بالاستغفار[١] عما بدر منه في هذا الكتاب، بسبب منهج الشك الذي طبقه ليس على الشعر الجاهلي فقط، بل وعلى أشد النصوص قداسة "[٢].

لقد فتح طه حسين النار على نفسه عندما انزلق هذا الانزلاق، وتعرض لكتاب الله تعالى، وكان يكفي أن يخشع قلبه وتخشع جوارحه لما جاء في كتاب الله تعالى إيماناً وتثبيتاً وتسليماً. "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً "[٣].

ولكن طه حسين فيما يُعرف عنه وطوال عمره صاحب أنفة وعزة وغرور، تحدث عنها هو نفسه في أيامه ومنذ مطلع شبابه. وقد أساء القصد والطريقة عندما أحدث على المسلمين ما لم يفعله أحد قبله ولا بعده، بالتشكيك ببعض ما جاء في القرآن الكريم. وكان يدعو دائماً في دراساته لنزع القداسة عن القرآن الكريم.

وقد ولت وذهبت تلك الأيام والليالي الحوالك إلى غير رجعة- بإذن الله-. ولكن التاريخ عظات ودروس، ورب ضارة نافعة، فقد تكون ردات الفعل العنيفة ضد كتاب الشعر الجاهلي، عوامل إيجابية لتجديد النبض الديني للمجتمع عبر إذكاء مشاعر الغيرة الدينية الصادقة والعاطفة الحقيقية.

---

(١) انظر: زكي مبارك، سلسلة أعلام ومشاهير، إشراف د. رؤوف سلامة موسى، ٥٧.
(٢) ينظر ما جاء في المساجلات والمعارك الأدبية التي ذكرها أنور الجندي، ١٢٥.
(٣) سورة النساء، آية ١٢٢.

وعلى كل حال، فإن المرء يستطيع أن يقرر قلة احتفاء طه حسين بالوازع الديني، وهو بلا شك من المشككين الكبار بنقاء التاريخ الإسلامي الوارد في أمهات المصادر التاريخية الإسلامية، وكان قد دعا لكتابة التاريخ الإسلامي والأدب كذلك كتابة حديثة، وتقديمها لجماهير القراء.

وكان طه حسين قد قرر مع رفيقيه أحمد أمين وعبد الحميد العبادي كتابة هذا المشروع الثقافي الكبير،الذي يضم التاريخ الإسلامي في جوانبه السياسية والعقلية والأدبية[١].

ويبدو أن الحظ والوقت والعزيمة لم تواتِ طه حسين وعبد الحميد العبادي، بخلاف أحمد أمين الذي أنجز الجانب المطلوب منه، وهو الحياة العقلية، أفضل إنجاز، وأخرج مجموعته الشهيرة:

-فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام.

*****

اشتهر توفيق الحكيم[٢] كذلك بآرائه الفلسفية، وبثها في كتبه وأعماله،

---

(١) انظر: أدباء التنوير والتاريخ الإسلامي. محمد محمد الجوادي، دار الشروق، القاهرة ط ١ / ١٤١٥هـ.
وفيه يشرح المؤلف قصة الاتفاق بين هؤلاء الأدباء: (طه حسين، أحمد أمين، عبدالحميد العبادي) لكتابة التاريخ الإسلامي من كافة جوانبه السياسية والعقلية والأدبية.

(٢) توفيق الحكيم: حسين توفيق إسماعيل الحكيم (١٨٩٧ _ ١٩٨٧م) ، الروائي والكاتب المسرحي ، ولد بالإسكندرية وتعلق بالأدب والفن منذ بداياته المبكرة ، وبعد أن حصل على

فكتب مصنفات عدة عن فلسفته التعادلية.

والتعادلية – كما هو واضح من اسمها– مأخوذة من العدل والاعتدال. ولا بأس من إلقاء بعض الضوء على هذه الفلسفة، برغم أن المؤلفات الثلاثة المطروحة للدراسة[1] لا تتعمق في عرض هذه الفلسفة بدرجة عالية إذ إن الحكيم تناولها في مؤلفات أخرى تناولاً شافياً، إلا أن للتعادلية أثراً ملموساً في هذه المؤلفات، مثل باقي كتب الحكيم، لاسيما في موضوع إحدى رسائله المرسلة لصديقه، فحدثه عن ضرورة التربية الشاملة للحواس، وأهمية تعليم الطفل منذ نعومة أظفاره التذوق والجمال لما يحيط به من أرضٍ وسماء وما يحتوى هذا الكون الزاخر بآيات الجمال والإبداع. فالإنسان لا يستطيع تقدير الجمال والمحافظة عليه إن لم تتذوقه حواسه وملكاته الداخلية. وقد أمر الله عزّ وجل عباده بالنظر في ملكوته وتدبر الآيات البينات بالسير في الأرض تارة، والبحر تارة، وتأمل آيات الكون المعجزة، وهذه إحدى مفاتيح الخشوع والتسليم لخالق الكون ومدبره.

ليسانس الحقوق ، سافر لفرنسا لدراسة الدكتوراه ولم يحصل عليها ، وبعد أن عاد لمصر عمل وكيلاً للنيابة بمدينة طنطا، ثم مديراً لتحقيقات بوزارة المعارف ، وقد رأس الحكيم دار الكتب المصرية ، ونال جوائز أدبية بمصر ، وترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية.
ومن مؤلفاته:
- عودة الروح
- عصفور من الشرق
=- يوميات نائب في الأرياف
انظر: مشاهير الشعراء والأدباء ،٥٦

(١) الأعمال هي:
زهرة العمر – سجن العمر – عصفور من الشرق.

وتعادلية الحكيم ترى المعادلة والموازنة في هذا الكون من أكبر الكواكب إلى أصغر الذرات.

وقد تعمق الحكيم في الفكرة، وناقشها في الحياة والفن، بل وفي ضوء الكتاب والسنة، مستنداً في فلسفته هذه على شواهد دينية ودنيوية.

يقول:

" بأشعة العقل ومنطقه، وحرارة القلب وإيمانه، يستطيع الآدمي أن يحيا حياته الكاملة "[١]

والتعادلية لدى الحكيم مذهب يقاوم العجز والضعف بالإيمان بوجود القوى المعوضة، فمتى ما أحس المرء من نفسه عجزاً ونقصاً في جانب ما، فلابد أن يكون قوياً في جانب آخر، فلا يوجد إنسان ضعيف، ولكن يوجد إنسان جاهل مواطن القوة المعوضة في نفسه[٢] ولاشك بأن التعادلية بهذا المفهوم والرؤية ليست فكرة مبتدعة من الحكيم، لأن الإسلام يقوم على مبدأ الاعتدال والتوازن، وهذه ميزة ديننا العظيم، بموازنته بين عالمي الدنيا والآخرة، ولا تستقيم حياة الإنسان وتتكامل إلا بهذه المعادلة الحكيمة.

---

(١) التعادليه مذهبي في الحياة والفن ، توفيق الحكيم مكتبة الآداب ، القاهرة (د. ت)، ١١٠

(٢) انظر: المرجع السابق ١١٤ -١١٥

والصعوبة التي تقف أمام الفلسفة الإسلامية للنهوض بالأمة الإسلامية، هي التحرك المسلم وفق لغة المنطق والعقل ولغة الإيمان[١].

وهو موقف تفكيري لم يحدث لفلاسفة أوروبا؛ لأن تفكيرهم يعيش في عالم واحد ولغة واحدة هي لغة المنطق العقلي، وقد واجه الفلسفيين الإسلامي ابن تيمية في هذا الموقف، وعرض في كتابة درء تعارض العقل و النقل[٢]، ولعل الحكيم تحدث عن أهمية التربية الشاملة للحواس والملكات، قصد تفعيل دور كل حاسة وملكة داخل النفس الإنسانية لاستشعار وتقدير مواطن الجمال و القوة والنور، والمحافظة عليها.

ويبدو التقاء الثقافات وتمازجها واضحاً ومؤثراً في سيرة عبد الوهاب المسيري ومشوار حياته الفكرية، التي ابتدأها أديباً متخصص في الأدب الإنجليزي، وانتهى مفكراً إسلامي يحمل رؤية لمشروع نهضوي[٣] حضاري، يستند على رحابة الإيمان، ويُسعد الإنسان ولا يُشقيه، كما فعلت الحضارة الغربية.

---

(٣) انظر: التعادلية مع الإسلام توفيق الحكيم. دار الشروق القاهرة. ط أولى ٢٠٠٨م ١٣٧

(٢) انظر: المرجع السابق ١٣٧

(٣) تزخر سيرة عبد الوهاب المسيري بعشرات الأمثلة المتأملة للحضارة الغربية وتأثيراتها على إنسان العصر، وقد آثرت الاكتفاء ببعض الأمثلة والتعليق عليها للاستدلال على الرؤية الثاقبة لما وراء الظواهر، والتي اكتسبها الكاتب – من وجهة نظري- من خلال تداخل الثقافات

ويستطيع القارئ بسهولة تلمّس النزعة النقدية الفاحصة لدى المسيري في كل ما يحيط به، فهو لا يكاد يترك حادثاً عابراً منه دون أن يُعلّق عليه ويتعرض له بالشرح والتحليل، مثل انتقاده استنزاف موارد الطبيعة بلا حساب، ويرى أن السرعة الخرافية بدوران عجلة المصانع وإنتاج سلع لايريدها الإنسان ولا يحتاجها[1] أضرَ بالإنسان والطبيعة معاً،ليس في مساحات محدودة في الولايات المتحدة وأوروبا مثلاً، بل في العالم بأسره.

فقد نشأ في بيئة محافظة على مبدأ التدوير لصالح النفع الجماعي، عبر الانتفاع من المواد المستهلكة بأكبر قدر ممكن، أو عبر تحويلها لمواد نفعية أخرى، مما يسهم في الحفاظ على موارد البيئة ونقائها إلى جانب تقليل كمية النفايات لأقل حجم ممكن.

ويتذكر طريقة أكل والدته لوجبة الدجاج مثلاً، وكيف أنها كانت تتعامل بكفاءة مع كافة أجزاء الدجاجة. فتأكل اللحم وتمص العظم. وترمي ما تبقى للقطط وهو ما كان يفعله هو نفسه. لكن جيل الشوك والسكاكين (أولاده) أهدر قيمة التدوير النفعي لصالح (الجميع، فالشوكة

العالمية ،كالماركسية والثقافة الأم للكاتب وهي الإسلامية وغيرها من الثقافات التي ساعدته من نقد الثقافة المهيمنة حالياً على العالم، وهي العلمانية بأشكالها المتعددة.

(١) انظر: رحلتي الفكرية ٤٢٢.

والسكين لا تصل لجميع أجزاء الدجاجة، فكان يصل لصندوق القمامة قسم كبير من اللحم والعظم[١].

وكثيراً ما كان يناقش أصدقاءه عندما كان في الولايات المتحدة عن ظاهرة الاستهلاك المتفاقم وضررها على البيئة، وكانوا يفسرون تساؤلاته بأنها حسد من شخص من العالم الثالث[٢]. ولكن المسيري كان جاداً في توضيح فكرته، "فالقمامة المتزايدة دليل على الاستهلاك المتصاعد، ومؤشر على النهب المتزايد للبيئة"[٣].

وقد حدث أن طلبت زوجته منه ذات مرة البحث عن صنف من الطعام، فذهب إلى المتجر التمويني الهائل (السوبر ماركت) ليجد أن هناك أصنافاً هائلة من ذلك الطعام، فهناك صنف محلى بالعسل، وآخر مُدعم بالفيتامينات المهمة، وهذان بدورهما ينقسمان إلى صنف عادي وصنف متميز محبب للأطفال، والذي ينقسم بدوره إلى أقسام عديدة، منها ما هو على شكل حروف أبجدية، ومنها ما هو على شكل ديناصورات.

وهكذا تتنوع الأصناف وتزداد حيرة المشتري، وكان المسيري يقع أمام هذه الاختيارات في حيرة شديدة، فيضطر لاختيار أي صنف بصورة عشوائية "وهكذا بدلاً من أن تحقق لي الوفرة حرية الاختيار،

(١) انظر: المصدر السابق، ٣١
(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٦٧.
(٣) المصدر السابق، ٢٦٧.

سلبتني إياه"[١] وقد بين الطب النفسي أن كثرة الاختيارات قد تؤدي إلى مشكلات نفسية، فعلى الإنسان أن يحدد بدقة ما يريد ويختار بين سلع الفرق بينها طفيف،وهو يحدده بنفسه، وكل هذا يتطلب جهداً نفسياً كبيراً يشكل ضغطاً حقيقياً على الإنسان[٢].

ولاشك بأن لدى المسيري أكثر من توجه ثقافي؛ ليرى ويتنبأ في تلك الفترة المبكرة (الستينيات الميلادية)، ما لم تنتبه إليه حكومات الغرب –الولايات المتحدة خصيصاً– إلا بعد عقد من السنوات، عندما بدأ الكلام عن المشكلة البيئية في السبعينيات[٣]، فقد تزايد الاستهلاك حتى أن استهلاك المواطن الأمريكي كان يعادل استهلاك ألف مواطن هندي. وإذا كانت "فكرة التقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الطبيعة، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك، فهناك معادن آخذة في الاختفاء، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنوياً"[٤].

ولطالما تساءلت شخصياً عن مصير ملايين أجهزة (الكمبيوتر) الحاسبات الآلية الكاسدة في العالم العربي مثلاً، إذ إن هناك مئات الملايين من هذه الأجهزة، بل هي أكثر بكثير من كل سكان العالم العربي، وقد تبدو عملية التخلص منها بدون أضرار شبه مستحيلة ،والآن يتحدثون في الغرب عن أضرار مشابهة للفضاء، حيث توجد

(١) المصدر السابق، ١٩٧.
(٢)انظر: المصدر السابق ٢٦٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٦٧.
(٤) المصدر السابق ٢٧٧.

مئات الأقمار الصناعية (المعطلة) والعالقة في الغلاف الجوي للأرض[1].

ويتضح من عشرات الأمثلة المختلفة في رحلة المسيري ضرورة تسلح إنسان العصر بالإيمان، مُشدداً على أهمية شمولية المعاني الأخلاقية للتراحم الإنساني. فالأخلاق ضرورة قصوى في تطوير الأبحاث العلمية الإجرائية،لاسيما بعد ظهور الهندسة الوراثية، فأخطاء التجارب العلمية – في الماضي– كانت برغم قسوة وفداحة أضرارها، مُستوعبة في نظام دورة الطبيعة، ولا تتحدى قوانينها لذلك، فدورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذه الأضرار، حتى إن التلوث الإشعاعي "قد يستمر لآلاف السنين، ولكنه مع هذا يظل داخل دورة الطبيعة، أما تجارب الهندسة الوراثية، فهي أمر مختلف عن التهجين القديم، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتيريا أو الحيوانات في الشفرة الجينية لأنواع النباتات.. هذه التجارب قد تأتي بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها، فهي مخلوقات تقع خارج نطاق

(١) إن عواقب المشاكل التقنية العالقة في الفضاء أبعد من أن يتصورها العالم.
فهناك مئات الأقمار الصناعية العالقة في مدار الأرض. ويزداد الوضع سوءاً متى ما اصطدمت بعض تلك الأقمار ببعضها، لتتناثر أشلاء وتكون سحابة حطام فضائي. وهذه مشكلة كارثية لانتشار سحب الحطام التي لا تستقر في مكانها هادئة، بل تتحرك أحياناً بسرعة هائلة. وقد قام مشروع يُسمى بمشروع كيسلر (نسبة لأول خبير انتبه لهذه المشكلة عام ١٩٧٨م. وهو دون كيسلر من وكالة ناسا الفضائية) ويرمي هذا المشروع لتنظيف الفضاء من الحطام الفضائي. وتظل الجاذبية هي التحدي الأكبر لمشاريع تنظيف الفضاء من ملايين قطع الخردة العالقة فيه. من مقالة نشرتها مجلة نيوزويك (العربية) ع٤٧٧، ٢٠٠٩م، بقلم فريد غوتيرل، ص ٢٩.

حلقة التطور الطبيعية"[١] لذلك فكثير من العلماء الذين حققوا اكتشافات في حقل الهندسة الوراثية يقفون ضد إجراء التجارب في هذا المجال خوفاً من عواقبها الوخيمة بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية، بحيث أصبح التجريب غاية في حد ذاته، بغضّ النظر عن نتائجه التي قد تودي بالإنسان[٢].

فالتزام المعايير الأخلاقية حاجة ماسة في عملية التطور والتقدم الحضاري، وجعل الارتقاء بمستوى الإنسان المادي وسعادته الروحية هدف التقدم الأسمى، لذلك وعندما يذكر المسيري مخاطر وانتكاسات التقدم الغربي بسبب انتفاء النزعة الأخلاقية، يورد بعض ما جاء في الحديث الشريف: "وأعوذ بك من علم لا ينفع"[٣].

فهو– مع إقراره بوجوه التقدم الحضاري الجيدة– يمتلك حساً نقدياً فاحصاً مُستقى من رحابة الإيمان،حِسّاً قادراً على النظر في جانبي وطرفي المعادلة الحضارية الحالية، فلا تطغى الإنجازات الباهرة على عواقبها الوخيمة.

---

(١) المصدر السابق، ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق، ٢٧٦.
(٣) الحديث بلفظ رواية أبي هريرة رضي الله عنه: "اللهم إني أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمع).
انظر:
سنن أبي داود، مراجعة وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، ٩٢/٢.

ومثلما ينتقد المسيري ظاهر الحضارة الغربية وباطنها ممثلة في الإنجاز العلمي والفلسفات العلمانية، ينتقد نفسه كذلك، فحين تحدث عن عالم صناعة الإعلان في الغرب، وكيف أنه عالم قائم بحد ذاته تُصرف عليه المليارات، وكيف استطاعت الإعلانات قولبة حياة الناس وترتيب أولوياتهم الاستهلاكية بجعلها في رأس هرم اهتماماتهم في الحياة، يذكر أنه تعرض لضغوط المجتمع الاستهلاكي المتزايدة لأكثر من مرة، فقد كان مثلاً عندما يسافر يركب الدرجة السياحية مُستمتعاً برحلة يقضيها ما بين التأمل وشرب فنجان القهوة، إلى أن شاهد ذات مرة إعلاناً عن مقاعد الدرجة السياحية، وكان الإعلان يتحدث: "عن مدى اتساع كراسي الدرجة الأولى، وتظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنة براكب الدرجة السياحية، الذي تظهر صورته بعد ذلك وهو يتقلب من الألم في كرسيه، ويلكزه جاره عن غير قصد، منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة الأولى مسألة مؤلمة بالنسبة لي، هذا هو حالي أنا المدرك لما حولي، الواعي به تمام الوعي، فما بالك بالمواطن الأمريكي التلقائي الطيب، الذي تغرقه وسائل الإعلام يومياً بسلع جديدة"(١).

فهو يعترف بمدى شدة ضغوط المجتمع التي يتعرض لها الإنسان، مما يجعله في بعض الأحيان يتخلى عن قناعته وتفكيره المنطقي تماشياً مع حركة المجتمع ونبضه العام.

---

(١)رحلتي الفكرية: ٢٦٦.

ومنذ بواكير حياة المسيري كان لديه تأصيل ذاتي في رؤيته لنفسه وللعالم من حوله، فقد تعمق في درس ونقد المقولات الفلسفية التي سادت العالم، وعززت فلسفة العلمانية، بل إنه توغل في درس وسبر العلمانية أمام الغرب أنفسهم، وفي إحدى المحاضرات التي ألقاها في فرنسا عن العلمانية، قالت له إحدى السيدات: إنه برغم علمانيتها، فإنها تمنع أولادها من رؤية الأفلام الإباحية، فأوضح لها بأنها فعلت الأمر الجيد. وأن علمانيتها جزئية[١] ولم تطبق العلمانية الكاملة بحذافيرها. وأدارت حياتها الشخصية مُستندة على نموذج أخلاقي يعترف بالقيم الأسرية[٢].

وقد أخذت دراسات المسيري النقدية لمفهوم العلمانية تتشكل وتتعمق في كتبه ومحاضراته، حتى أن أحد أهم أساتذة العلمانية في أوروبا افتتح مؤتمراً عن العلمانية، وكان قد تأثر بمحاضرة المسيري عن سقوط العلمانية، بقوله: "إنه لا يمكنه تصور العلمانية بدون الإيمان بالله"[٣].

فالمسيري حين ارتحل لإكمال دراسته في الولايات المتحدة، ذهب إليها وهو متسلح بثقافة إدراكية قوية، وكما يعترف بإيجابيات الحضارة الغربية، يعرف ويفتخر بحضارته وتراثه، وعندما سُئل عن تاريخ منظري النقد، كان يعرف مُسبقاً أنهم يتوقعون إجابة عن إفلاطون

(١) انظر: المصدر السابق، ٣٩٩.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٤٠١.
(٣) المصدر السابق، ١٩٨.

وأرسطو، ولكنه أراد أن يذكرهم بهويته مسلماً عربياً مصرياً، وقال لهم: الجرجاني. وهو ما اضطرهم – وهم الأساتذة– إلى سؤاله عن هذه الشخصية، وهكذا.

"بينت لهم حدود معرفتهم وجهلهم تماماً بخلفيتي الثقافية"[١].

وهو يعترف دائماً بفضل ثقافته الماركسية – بعد أن أنقص وأضاف إليها– التي تنظر للأشياء نظرة كلية، برغم تعقيداتها الكثيرة وجزئياتها المتغايرة، وترفض قبول الظواهر على أنها جوهر الحقيقة[٢].

بل تتغلغل لداخلها وجلاء حقيقتها.

المبحث الثالث

الموقف من ثقافة الآخر رفضاً أو قبولاً

من الموضوعات المهمة التي لا ينبغي تجاوزها في هذا الفصل موضوع غاية في الأهمية، وهو اندلاع ثورة غيّرت المفاهيم وقلبت المعتقدات رأساً على عقب، وهي **الثورة الثقافية**، التي حمي سعير

(١) المصدر السابق، ١٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٣٢٤.

تأججها عام ١٩٦٨م في عواصم الغرب، من الولايات المتحدة وهولنـــدا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، وغيرها من العواصم الغربية. وما أعقب هذه الثورة من تغيرات هائلة ومذهلة في مسألة الحريات الاجتماعية والقضايا الفكرية الجريئة. وكان طابع الثورة الأساسي وشعارها العلنـــي التمـــرد الكامل والانسلاخ من قيود الأخلاق والدين ورفض المجتمع برمته.

وقد تناول بعض كاتبي السير هذه الثورة وتبعاتها الاجتماعية، إبان وجودهم خلال تلك الحقبة الزمنية الهامة، فالعادات الاجتماعية المحافظة لم تعد تستطيع الصمود بعد مجريات هذه الثورة. وســـأذكر فـــي هـــذا المبحث بعض الشواهد لما كان عليه المجتمع الغربي قبل وبعـــد أوفـــي أثناء هذا التمرد العريض في شرائح المجتمع.

- يذكر عبد الوهاب المسيري عن معاصرته الواقع الاجتماعي فـــي الولايات المتحدة الأمريكية بين فترتين زمنيتين حاسمتين:

"فالولايات المتحدة في النصف الأول من الستينيات كانت محافظة بشكل خانق حتى عام ١٩٦٥م، ثم بدأت حركة اليسار الجديـــد وحركـــة الجنس الحر، أو الجنس بلا ضوابط، وصاحبها قدر من التفكك بدأ يتزايد بسرعة تفوق الوصف. فعلى سبيل المثال، كنا نستضيف بعض الطالبات الأجنبيات في منزلنا في الأعياد، باعتبار أنني وزوجتي كنا أكبر الطلبة الأجانب سناً، فكان علينا قبل عام ١٩٦٥م أن نوقع على أوراق نتعهـــد

فيها بإعادتهن إلى المدينة الجامعية قبل الساعة العاشرة. وحينما عـــدت في السبعينيات، أصبح هناك بيوت مختلطة للطلبة والطالبات."[١]

ومن النص ندرك أن الولايات المتحدة خاضت تجربة أشـــبه مـــا تكون بعملية تغيير لجلد المجتمع وتهميش المعتقدات الراسخة. وما كان واضحاً وصارماً في المنع والرفض، أصبح بعد عقد من الزمان مقبولاً ومألوفاً، ليس بأمريكا فقط، بل في سائر البلدان الغربية.

- وقد أشار **محمد عناني**[٢] في واحاته لهذه الثورة، وكيف أنه وفي صيف ١٩٦٨م امتلأت الصحف اليومية والأسبوعية بأخبار ثورة الطلاب في فرنسا، وعن تعاظم الفوضى المنذر بـــالخراب، ممـــا اضطر جامعة السوربون إلى غلق أبوابها للمـــرة الأولـــى منـــذ إنشائها قبل ٧٠٠ سنة، وامتدت الفوضى والإضراب ليشمل العمال والموظفين، وكادت فرنسا تواجه الشلل الكامل في الحياة العامة[٣].

---

(١) المصدر السابق، ٣٨٢.

(٢) محمد عناني: (١٩٣٩-) المترجم المصري المعروف. والرئيس الفخري لجمعية المترجمين العرب. تخرج من قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة ،وعمل أستاذاً فيها إلى أن أصبح رئيساً للقسم. عمل كذلك مترجماً بالإذاعة المصرية، ومترجماً في هيئة الإذاعة البريطانية القسم العربي - في لندن خلال دراسته العليا ببريطانيا، وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب. وخبير بمجمع اللغة العربية، له مؤلفات أدبية كثيرة وفي الأدب والنقد. وقد ترجم مصنفات إنجليزية في الأدب والنقد، وهو المشرف على تحرير سلسلة الأدب العربي المعاصر باللغة الإنجليزية. حصل على أوسمة الدولة وجوائزها الرفيعة.
انظر:
موقع: المجلس الأعلى للثقافة.

(٣) انظر: واحات الغربة، الجزء الثاني ، الفصل الخامس.

- ولكن ما الذي حدث واستدعى هذا التمرد والفوضى والرفض لسائر قواعد المجتمع، وما آلت إليه هذه الثورة من تغيرات شملت المجتمعات الغربية من أعلاها لأدناها؟

كتب عبد الرحمن بدوي دراسة ضافية وممتعة نُشرت مطلع السبعينيات الميلادية بمجلة عالم الفكر الكويتية[1]، عن تحليله الشخصي لملابسات هذه الثورة العارمة،في دراسة طويلة لأسباب الانفلات الاجتماعي غير المسبوق، والتمرد ضد كل شيء مقدس ومحافظ، حتى لم يعد لهذه الكلمات اعتبار واحترام لدى الناس، وهي ثورة تمخضت من العلاقة المتنامية بين الإنسان – في المجتمعات الغربية– وبين الآلة. ولأهمية الرؤى المطروحة في الدراسة – بالنسبة إلي– أورد خلاصة لأبرز الاجتهادات التحليلية فيها، فحتى الأمس القريب لم يكن الإنسان يعرف السيارة ولا الثلاجة وغيرها من أدوات الترفيه، فإذا به اليوم، لا يعد هذه الأشياء من الضرورات الأولية فحسب، بل يحرص كل الحرص على اقتناء أحدث النماذج والتقنيات المتطورة. وهكذا انقلب الهدف من المدنية، وبدلاً من أن تعلمنا المدنية فن التخلي عن الأشياء؛ لأنه لا توجد حرية حقيقية بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك، بدلاً من هذا، علمتنا فن التعلق بالأشياء، وامتلاك أكبر قدر، مع أحدث التصاميم،مما أنتج انتقاص الإنسان من قدر نفسه إذا ما قاسها بالنسبة لهذه الآلات، فيحط

(١) انظر: عبدالرحمن بدوي، الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب، مجلة عالم الكتب، الكويت، ١٩٧٠م.

من قدر نفسه بقدر تقديره لكفاءة الآلة ودقتها وكمالها. وصار الإنسان مُستعبداً للآلة، فلما يئس من التحرر من سلطان الآلة، رأى نفسه مضطراً للتنفيس بالتمرد على أعلى أشكال المحافظة في الدين والسياسة والأخلاق، وتعلق هذا التنفيس بأمر أحاطته المجتمعات الإنسانية بهالة من الأسرار وألوان التحريم والقيود، إنه غريزة الجنس وكل ما يرتبط بها ويؤدي إليها، ويمت لها بصلة، فانتشرت الكتب والمجلات والروايات الإباحية، ولم يكن يهدف أصحاب هذه الإصدارات إلى مجرد الإثارة فقط، بل إن وراء ذلك هدفاً سياسياً واضحاً وهو رفض المجتمع، ورفض المدنية الصناعية الآلية، والرغبة في التحرر من إرهاق مجتمع الاستهلاك.

-ولم يكن هذا التمرد مُوجّهاً ضد الأخلاق فقط، وفي أكثر الموضوعات حساسية، مثل الجنس، بل تعداه إلى موضوعات ذات قداسة في الديانة المسيحية، وأخذ الجيل الشاب من القساوسة يناقشون الأساسيات الثابتة، مثل عدم زواج رجل الدين – وخاصة لدى الكنيسة الكاثوليكية- حتى أن بعضهم طالب بأحقية الزواج لسائر أعضاء الكنيسة من القسيس والشماس والأسقف والمطران إلى رأس الكنيسة وهو البابا.

ولا ننسى صدمة إلقاء القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية التي أحدثت ثورة هائلة في أدوات تدمير الإنسان لنفسه، والأسئلة

المفزعة التي أعقبت هذه القنبلة في أدبيات وفلسفات أبرز كتاب العالم الدالة عن مدى الرعب الذي انتاب الإنسان مما ينتظره، بواسطة آلات الدمار الشامل التي اخترعها؛ ليقضي بها على نفسه بنفسه.

وتكشف الدراسة عن مأساة معاناة العمال في مراكز التصنيع الآلية، حيث يستطيع صاحب العمل صرف أي عامل بسهولة وإحلال عامل آخر، مما يجعل الفرق بين عامل (المصانع الآلية) والعامل صاحب الحرفة في القرون الماضية – بل حتى أوائل القرن العشرين– فرقاً هائلاً[1]، فالتكنيك قد سلب العامل لذة رؤية العمل الذي قام به، إذ أن التكنيك يقتضي عملاً من نمط واحد، ولا يهيئ السبيل إلى النمو وتوكيد الذات الفردية، مما يؤدي إلى إنكار الشخصية الإنسانية المميزة ويشيع الانحطاط؛ لأن التقدم التكنولوجي حين يسّر للإنسان السهولة واليسر والرفاهية، كان من المتوقع أن ينصرف الإنسان لتربية روحه وقيمه وذاته نحو الأفضل، ولكن الذي حدث إن الإنسان انصرف عن الحياة الروحية تماماً، وبدلاً من إشاعة القيم الإنسانية، انتهج بذاته لتوفير قيم الآلة والمنافع ذات الطابع الاستهلاكي والمتغير دائماً.

- هذه خلاصة موجزة لرؤية عبد الرحمن بدوي للدوافع الكامنة وراء هذه الثورة، وينبغي معرفة أن وقود الثورة تركز في فئة

(١) لاحظ أن هذه الدراسة نُشرت عام ١٩٧٠م قبل عقود من الوثبة التكنولوجية الهائلة الحالية. وقد كتب كثير من أدباء الغرب ومفكريه عن إشكالية الحضارة المعاصرة في أزمتها الكبرى وهي استلاب إنسانية الإنسان وقِيمه الروحية.

الشباب عبر حركات طلابية واسعة بأوربا وأمريكا، ليمتد بعد ذلك لشرائح المجتمع الغربي، ومن البدهي أن تُجابه هذه الحركات الساخطة على ثوابت الأعراف الاجتماعية بردود فعل غاضبة من قِبل جيل الآباء، وهي الشريحة الاجتماعية السابقة لجيل المتمردين الفوضويين، ولكن الفوضى والخراب قد حدثا بالفعل، وتعمّقا كالسوس في بُنية النسيج الاجتماعي، وأتت ثمارهما الفاسدة على كل مُبجّل ومقدس، ولم تعد للأعراف والقيم وزن مُعتبر منذ تلك الحقبة الثائرة إلى يومنا الحالي.

بطبيعة الحال لم تكن الدراسة بأكملها اجتهاداً مطلقاً للدكتور عبد الرحمن بدوي، فقد أرفدها بذكر آراء لمفكرين وأدباء غربيين لتعضيد رؤيته هذه. على أن الحقيقة الأساسية لهذه الدراسة تسليطها على مشكلة الإنسان المعاصر بفقدانه الشعور بتميزه الفردي عن غيره، وجعله مجرد رقم ضمن ملايين الأرقام / العمال، الذين يقضون أعمارهم في مراكز التصنيع الآلية.

- يقول توفيق الحكيم في روايته الشهيرة (عصفور من الشرق): "إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد، أصبح محتاجاً إلى ثماني عشرة عملية مختلفة، وأن العامل الواحد قد يقضي حياته كلها في صنع رأس الدبوس فقط، وآخر في صنع جزء آخر منه، كذلك الحال مثلاً في صناعة الأحذية، فهي في

بعض المعامل الأمريكية تقسم إلى أكثر من مائتي عملية، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء: كعب الحذاء مثلاً، معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة التي كان يحسها ويرتاح إليها، وهو يصنع بيديه حذاءً كاملاً في حانوته الصغير... نعم! حتى متعة الخلق الكامل التي كانت تُشعره بآدميته قد ذهبت؛ وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار، يخرط أو يطرق أو ينشر، جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء... ما الفرق بينه إذن وبين الآلة!" (١).

وهذا أمر جوهري وأساسي في عيوب التكنولوجيا، فمتعة الإنجاز للإنسان اختفت مع أساليب مراكز التصنيع المتطورة.

ويجدر بالذكر أن الولايات المتحدة وأوروبا واليابان هي بلدان صناعية بالدرجة الأولى، ويُطلق عليها (العالم الصناعي)، بخلاف بلادنا العربية، فبالرغم من آلاف المصانع في بلادنا العربية فإننا بعد لم نشكل كتلة صناعية كبرى في العالم الحديث. ولا تُعد الآراء السابقة لتوفيق الحكيم ومن قبله عبد الرحمن بدوي مبالغات في وصف مدى سيطرة الآلة على الإنسان في عالم الغرب الصناعي.

أكتب هذا الآن وأنا أرى العالم حالياً – وفي ظل الأزمة الاقتصادية العالمية– وقد استغنت آلاف المصانع بالولايات المتحدة

(١) عصفور من الشرق، توفيق الحكيم، دار الشروق، القاهرة ط٢/ ١٤٢٧هـ، ١٣٢ + ١٣٣.

وأوروبا واليابان وغيرها، عن ملايين العمال في جميع مراكز التصنيع العملاقة. وهذه كارثة من كوارث الحضارة المعاصرة، فقد أصبح الإنسان كما يقول عبد الرحمن بدوي مستعبداً للآلة، بدل أن يصبح سيداً لها، وهو لا يستطيع الاستغناء عنها بطبيعة الحال. والبحث عن مخرج لهذه الأزمة لا يكون بنبذ التكنولوجيا والصناعة الحالية وراء ظهورنا والرجوع إلى مجتمعات العصور الزراعية في القرون الماضية، وقد خُتمت دراسة بدوي بعرض لبعض الحلول الجانحة إلى أنسنة الآلة، وذلك عبر تهيئة أساليب الصناعات المستقبلية القادمة لإعطاء الإنسان مجالاً إبداعياً، وهو ما لم تقدمه التكنولوجيا الحالية.

ولأهمية معرفة الخلفية الثقافية لإنسان المجتمع الغربي، كان لابد لي من تسليط الضوء على الثورة الثقافية التي بدّلت وقلبت مفاهيم المجتمع الغربي وثوابته. وربما نستطيع الآن التفهم – إلى حدٍ ما– لبعض مظاهر الانفلات الفكري والاجتماعي في شواهد هذه الدراسة وأمثلتها.

وأرى أن مفهوم الرؤية الثقافية مفهوم واسع وفسيح، يضم أطيافاً هائلة من المرجعيات الفكرية المتفقة حيناً، والمتناقضة حيناً آخر.

والحقيقة أن النمط الثقافي الغربي ليس شراً كله، كما هو ليس خيراً كله، ورأيي أن نأخذ منه ما يناسب عقيدتنا وتقاليدنا الأصيلة، وندع الغث منه، هذا رأيي، وكل إنسان له رأيه واعتقاده فيما يشاهد ويعايش.

ولنا أن نتساءل: هل يبدو التحاور مع عقليات مختلفة متعة ذهنية؟ أم أنه تعقيد لا ثمرة له؟ إنها مجموعة مفاهيم تعكس طبيعة الشخص الذي تحادثه وعقليته.

الموقف مثلاً من ذبح الحيوانات لأكلها، وسلخ فراء الدببة القطبية لارتدائه، والاهتمام الفائق بالحيوانات–وخاصة الكلاب – ومعاملتها كفرد من أفراد الأسرة[١].

هناك من هو أقل حدة في آرائه، ويقاطع مثلاً كل تسلية جاهزة مثلاً، مثل مشاهدة التلفاز والسينما؛ لأنها في رأيه ثقافة معلبة سلبية[٢]، لا تسمن ولا تغني من جوع.

والحقيقة أن كثيراً من الآراء المؤيدة والمعارضة قد تُوجد في مثل هذه الموضوعات في أي بلد كان، لا سيما في بلد يتضمن حرية الرأي الكاملة لأفراده، فما دام لا يؤذي الآخرين بتصرفاته، فلا ضير مما يعمل حتى لو رآها الوافد الشرقي مخالفة للآداب والأخلاق الفاضلة.

فمن الأمور التي لفتت انتباهي في سير المرتحلين للغرب الحجم المتزايد والمتصاعد للجرأة إلى حد الوقاحة والابتذال، مثلما شعرت به الكاتبة **هالة سرحان**[٣]، عندما ذهبت مع بعض الرفيقات إلى مطعم

---

(١)انظر: أمريكا خبط لزق، هالة سرحان، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥م، ٢٨

(٢) انظر: المصدر السابق، ٤٤.

(٣) هالة سرحان: إعلامية وصحفية مصرية حاصلة على درجة الدكتوراه في الدراما المسرحية. عملت في بعض المجلات والصحف ،ثم اتجهت للعمل في القنوات الفضائية

بغرض الترويح عن النفس لتكتشف فيما بعد أن مرتادي المطعم من النساء فقط، إلا أن جميع عامليه من الرجال، وبالذات الشباب من ذوي الوجوه السينمائية.(١)

وقد أثار المشهد برمته غضب الكاتبة واستهجانها واشمئزازها إلى درجة الغثيان، وهي في أغلب مواقفها المستنكرة خلال رحلتها الدراسية بأمريكا، تحاور نفسها وتسائلها في شعارات العالم الحر – كما تحب الولايات المتحدة أن تطلق على نفسها–، مثل سوء استغلال صورة المرأة، وحقيقة مفهوم التقدم والتخلف، والحرية الاستقلالية، وطبيعة هذه الحضارة التي تحياها بكافة وجوهها.

هذا هو المنطق الأمريكي في التفكير، وقد رفضت الكاتبة هذا المنطق جملة وتفصيلاً في أكثر من موضع من شواهد رحلتها، وأوافقها تماماً على رفض هذه السلوكيات المدمرة لأي مجتمع مهما كان تطوره.

وغني عن الذكر أن اختلاف طرائق التفكير الاجتماعي في الغرب المتحرر عنه في الشرق المحافظ، يولّد الكثير من المفارقات الثقافية في

واشتهرت بتقديم البرامج الحوارية الساخنة، تعرضت مؤخراً لانتقادات عنيفة من الشارع المصري والعربي على كافة المستويات الشعبية والإعلامية والقضائية بسبب موضوعاتها الفاضحة.

انظر موقع: (الموسوعة الحرة) ويكيبيديا.

(٢) انظر: أمريكا خبط لزق ،٦٥.

الأنماط السلوكية والمفاهيم على حدٍ سواء، وقد أشارت الكاتبة **رضـــوى عاشور**[١] لبعض هذه المفاهيم المثيرة للجدل.

- لنقرأ مثلاً هذا المثال الذي أوردته رضوى فـــي أثنـــاء رحلتهـــا للدراسة في أمريكا، لتوضيح مدى اختلاف الثقافات والعقليات بين الشرق المحافظ والغرب المتحرر.

فقد انتشرت حالات التبني من قبل عائلات محرومة مـــن نعمـــة الأطفال، وإلى الآن الأمر طبعي، ولكن أن تبيع فتاة طفلها وهو لا يزال جنيناً في بطنها، فهذا أمر لافت للنظر.

وقد أجرت إحدى القنوات التلفزيونية مقابلة مع هذه الفتاة، ويسألها المذيع: لماذا لا تريد الطفل؟ فتجيبه بأنها ليست مستعدة لتحمل مسؤولية طفل، إن نمط حياتها لا يسمح لها بوجود طفل[٢]، فاتفقت مع أسرة ثرية من خلال محامٍ لأخذ هذا الطفل بعد ولادته مباشرة.

وهي تشرح تجربتها من بداية الحمل وحتى الولادة، وحالما وقّعت الاتفاق بينها وبين الأسرة الثرية من خلال المحامي، أخذوها إلى مكـــان

---

(١) رضوى عاشور (١٩٤٦-) ولدت في القاهرة وتميزت في دراستها حتى حصلت على الدكتوراه من أمريكا في قسم اللغة الإنجليزية، وقد تقلدت مراكز أدبية وثقافية رفيعة في مصر، ولها مؤلفات كثيرة منها: الرحلة، خديجة وسوسن، حجر دافئ.
انظر:
موقع: بيان الثقافة.
(٢) انظر: الرحلة، رضوى عاشور، مكتبة مدبولي، القاهرة ط٣ / ١٩٨٧م، ١٥٦+١٥٧.

في فلوريدا يوجد به فتيات مثل وضعها حوامل لا يردن أطفالهن، وقررن إعطاء أطفالهن للتبني مقابل مبالغ مادية[١].

هذه الحالة قد تكون غريبة الوجود في مجتمعاتنا الإسلامية المحافظة، ولكنها منتشرة ومألوفة في الغرب، وهنالك وكالات معروفة لبيع أطفال الفتيات الحوامل اللواتي لا يردن أطفالهن لأي سبب كان، سواء كان الفقر أو المرض أو عدم الرغبة في تحمل مسؤولية أو غيرها من الأسباب.

والكاتبة رضوى باحثة محايدة، فهي تعرض الواقعة كما هي للقارئ، وللقارئ أن يحدد موقفه حسب اقتناعه بالمعارضة أو التأييد.

وفي مقال آخر يتحدث عبد الوهاب المسيري كيف انتشرت في الستينيات وما بعدها بدعة اقتناص أي شيء من البقايا المستعملة للمشاهير، كأن يوقع أحد نجوم الرياضة أو السياسة ونحوهم على عُلب الحساء القديمة أو عُلب القمامة، لتباع هذه العلب بآلاف الدولارات، وما إن يستطع شخص ما الحصول على هذا الأثر (الكنز) حتى يثرى ويشتهر ويباع ما يملكه من مخلفات المشاهير بأسعار شبه خيالية. [٢]

---

(١) انظر: المصدر السابق، ٧٥، ٧٧.
(١) انظر: رحلتي الفكرية ، ٢٠٥.

*****

الموسيقى:

الموسيقى ركن أساسي من أركـــان الدراســـة والتـــذوق الفنـــي والحضاري للغرب، وقد شغف بها المرتحلـــون للغـــرب مـــن الأدبـــاء وغيرهم أيما شغف، وإن كان هناك قاسم مشترك للاتفاق بيـــنهم علـــى أزهى جماليات الثقافة الغربية، فهي الموسيقى بلا شك.

فالموسيقى محور رئيس من محاور الثقافة الغربية، ولغة راقيـــة للتواصل والحوار، كانت ولا تزال عند الغرب بمكانـــة شـــبه مقدســـة، فتدرس في المدارس والمعاهد والكليات، ويحضر كبار وجهاء المجتمـــع حفلات موسيقية لا يحضرها إلا نخبة المجتمع من الموسرين للاستمتاع بروائع أعلام الموسيقى.

ويبرز **توفيق الحكيم** كأشهر من تعلق بالموسيقى وعوالمها مـــن كاتبي السيرة، ويكفي أن يطلّع المرء على بعض كتبه، لاسيما **(زهـــرة العمر)** و**(عصفور من الشرق)** ليشعر أن الموسيقى كانت عزاءه وسلواه وغاية أمله.

يقول لصديقه أندريه: "إني أصغي إلى الموسيقى لا للفائـــدة، ولا للاطلاع، ولا حتى للحاجة الفكرية، أو السمو الروحي، إنما للحياة نفسها إني أعيش بين أنغامها كما تعيش النحلة بين ألوان الأزهار"[١].

ويشير في أكثر من موضع إلى انجذابه على نحو خاص بموسيقى بيتهوفن، ويشدد عامة هؤلاء الأدباء على أهمية الاســـتماع للموســـيقى الكلاسيكية لأي مثقف، فالاستماع إليها يرتفع بسامعها إلى القمـــة فـــي المتعة والتذوق الفني الرفيع.

وإذا كانت أوروبا تنهل من ينابيع الموسيقى لأعلامها من فاجنر وبيتهوفن وباخُ ومزار وهايدن وغيرهم، فإن للولايات المتحدة موسيقاها التي اشتهرت بها، وأشهرها على الإطلاق موسيقى الجاز[٢] التي تحدث عنها أكثر من كاتب من أصحاب السير، فالكاتبة هالة سرحان تشير إلى أنه مثلما تقام حفلات الأوركسترا للسمفونيات الشهيرة، تقام كـــذلك فـــي المتنزهات العامة حفلات موسيقى الجـــاز. وقـــد اكتشـــفت بالتـــدريب

---

(١) زهرة العمر، ٨٩.

(٢) موسيقى الجاز تعبير عن حنين الشعب الأسمر في أمريكا إلى وطنه النائي في أواسط إفريقيا، غاباتها وأدغالها، وقد أُختطف أفراده خطفاً بواسطة النخاسة وأُرسلوا قيد الأصفاد والسلاسل في قاع سفن إنجليزية أو هولندية ليباعوا عبيداً، يعملون في حقول ولايات الجنوب وقد أنشأ أفريقيو أمريكا هذه الموسيقى المحمومة على آلات النفخ النحاسية والخشبية والطبول بطريقة يشتد فيها الزعيق محاكاة لزعيقهم الحنجري في الغناء. وبهذا تحقق لهذه الموسيقى الجدة في الإيقاعات وفي التوافق والتنافر بين الآلات والألحان بصورة زاعقة محمومة.
انظر: سندباد إلى العالم الجديد. حسين فوزي. دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ ، ٦١ وما بعدها.

الاستماعي لهذا النوع من الموسيقى أنها مليئة بالشجن العميق والعبقرية على حد قولها.

ويُعد الاستماع إلى الموسيقى عموماً في الخلاء والعراء من أجل التجارب الفنية، حيث تتردد أصداء الموسيقى إلى عنان السماء، وتتفاعل مع الطبيعة الساحرة، والناس يحملون مأكولاتهم من الفطائر والعصائر ويقضون أمسيات رائعة في ضوء القمر مع بيتهوفن، أو مع حلم ليلة صيف شكسبيرية، تتزاوج فيها المتعة الثقافية مع المتعة الترفيهية الراقية، ومثل هذه المشاهد المهرجانية شائعة في الغرب لتدريب الحواس والملكات الفنية بالاحتفاء بعالمي الطبيعة والموسيقى معاً. ويُحتفى بالموسيقى أيضاً في كل مكان تقريباً، وكثيراً ما يشاهد المرء عازفاً على آلته في زاوية شارع أو عند محطة المترو أو بجانب مقهى يعرض فنه أمام المارة والمتفرجين(١).

وفي الحقيقة يندر أن نجد من كاتبي السير من لم يتعلق ويُغرم بالموسيقى، بل ويعدّها ملاذاً للهدوء والراحة، مثلما ذكر عبد الرحمن عن شغفه بالموسيقى الألمانية:

"أصبحت مُولعاً بالموسيقى الألمانية، وموسيقى رتشرد فجنر بخاصة،وبالموسيقى الألمانية انفتح أمامي عالم ساحر، صار هو ملاذي

(١)انظر: أمريكا خبط لزق، ١٤٤

حين تسوّد الدنيا في عيني، أو يستبد بي الضيق واليـــأس، إنـــي أعـــد الموسيقى أعظم إنتاج انفردت به الروح الأوروبية"[1].

(١) سيرة حياتي ٩٤/١.